الفرق الاسلامية

الفرق ونشأتها الدين ويقظة العقل . نقد الكتاب . القـــدرية والجبرية . الشاميون وأثرهم في النظريتين . موقف الامويين من القدرية والجبرية . السياسة والدين .

الخوارج صفين ومصير الاسلام . التحكيم ونتائجه . حروراء . رجال الخوارج . النهروان . تكاثر الخوارج . اخلاقهم . انقسام الخوارج . العقيدة . فرق الخوارج وتعاليمهم الخاصة: الازارقة ، النجدات ، الصفرية ، الاباضية .

الشيعة اصل الشيعة . علي في نظر الشيعة . موقف الامويين من الشيعة . الامامة . الائمة . صفات الامام . خمس الامام . التقية والكتمان . المتعة . الشيعة والمعتزلة

المعتزلة اسمها . صفات المعتزلين . مذهبهم . صفات الخالق . نفي رؤية الله بالابصار . خلق القرآن . القدرية . مصير مرتكب الكبائر . فرق المعتزلة .

نشأتها . حاجة السنة الى الجدل . الاشعري ؛ حياته ، مؤلفاته . الاشعرية او السنة المتفلسفة . المحافظون والاشعرية . تمهيد لمذهب الاشاعرة . وجود الله . صفات الله . الله والخلق . نفي الاسباب . مصير مرتكب الكبائر . الغزالي والباطنية . موقف الغزالي من الفلاسفة . ازلية العالم وابديته . معرفة الله للكليات . الحشر الروحاني . الغزالي وعلم الكلام .

السنة

الفرق ونشوءها

الدين ويقظة العقل

ليس الرسل فلاسفة انما يأتون برسالة مُتشعِّبة الاطراف ، متنوعة الاجزاء ، لا تقوم على أس واحد ، بل تتصادر مبادؤها بعض التصادر ، حتى اذا ما مر جيل او جيلان اخذت العقول تعمل على صقلها بالشرح ، وتسويتها بالتأويل ، متأثرة في ذلك بنور الفكر ، وتقاليد الجماعات المجاورة لها . فتنتقل الرسالة من طور الى آخر ، ومن مرحلة تجزؤ وتنوع الى مرحلة توحد واستواء . فيأخذ كل جزء مكانه من المذهب العام ، وتبدو للمؤمن كأنها قطعة واحدة متضامة ، لا سبيل الى فصم عراها . وكثيراً ما تتم هذه العملية بتأويل نصوص الرسالة ، او بزيادة ما يقتضيه كلام المرسل وان لم يفصح عنه ، وبالاجابة على اسئلة لم تخطر له ، ولم تطرح في عصره ، والتوفيق بين المتفارقات في الشريعة . وينتقل الايمان من التسليم ببعض مبادىء عاطفية ساذجة ، الى التسليم بمبادىء لاهوتية ثابتة لا تتغير ولا تتعدل .

نقد الكتاب

اخذ الجيل الذي تلا الجيل الاسلامي الاول في بحث القرآن ونقده . ولم يقتصر البحث والنقد على خصوم الدعوة وحدهم ، بل تعدّاهم الى المؤمنين انفسهم .

ويظهر مما كتبه اصحاب الحديث ان النقد والبحث ظهرا ايام الرسول . فكان المسلمون يسرفون في طرح الاسئلة عليه طالبين منه ايضاح ما اختلف من معاني الآيات أو ما غمض منها ، فتثير تلك الاسئلة نفسه ، ويؤنب المتطفلين على تطفلهم ويطلب منهم الا يتحرفوا ببعض الكتاب عن مواضعه . وردت اشارةٌ الى ذلك في الكتاب نفسه حيث يقول « هُوَ ٱلَّذي أَنْزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَابِ ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَاءَ ٱلْفِتْنَةِ ، وَٱبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا ٱللهُ [١] . »

القدرية والجبرية

تمثل كثيرٌ من المؤمنين اللهَ بصورة جبار لا رادّ لامره ، معتمدين في اثبات رأيهم على آيات عديدة وردت في الكتاب ، تدل على انه عندما يريد هداية الناس يفتح صدورهم ، ويُنير ابصارهم ، ويَهديهم

---

١ آل عمران ، ٧

الى الاسلام . واذا شاء ان يُضِلَّهم يضيّق صدورهم ، ويعمي ابصارهم . من هذه الآيات قوله « فَمَن يُرِدِ ٱللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإِسْلامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حرجاً كأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّماءِ ، كَذٰلِكَ يَجْعَلُ اللهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لا يؤمِنُون [1] » وقوله « وما كان لنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلا بِإِذْنِ ٱللهِ ، ويَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ على ٱلَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ [2] . »

والذين يُثبتون الحرية الانسانية يعتمدون في تأييد رأيهم على آيات وردت في الكتاب نفسه ، منها قوله « فَكَيْفَ إِذا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ ، وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ [3] » وقوله « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ، حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا ٱلعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً ، أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللهُ على قُلُوبِهِمْ ، وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ [4] . » فليس الخالق الذي يعمي ابصارهم ، بل ان آثامهم تُلقي على ابصارهم ستاراً من الجهل . ويشيرون الى ما ورد عن مصير قوم ثمود الذين قادهم الله في الطريق السويّ ، ولكنهم فضّلوا الضلالة

---

١ الانعام ، ١٢٥ .

٢ يونس ، ١٠٠ .

٣ آل عمران ، ٢٥ .

٤ محمد ، ١٦ .

على الهـدى ، فانزل عليهم الصواعق « وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ، فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [١] » ويقول : « وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ [٢] . »

الشاسبون وآراهم في النظريتين

لم يقابل جميع المسلمين بالرّضى الفكرة المنتشرة بين العامة القائلة بعجز الانسان عن الاتجاه الحر في طريق الخير او الشر . بل كانوا يعجبون لخالق يدفع الانسان لاقتراف الشرور ثم يعاقبه على ذلك يوم الحساب . وشجع هـؤلاء على اظهار فكرتهم الثائرة ما كان يحيط بهم من افكار دخيلة متطرفة . وظهر الانتقاد الاول الموجـه الى هـذه العقيدة عنـد مسلمي الشام ، حيث كانت المسألة قد طرحت على بساط البحث في الكنيسة الشرقية ، واختلف المسيحيون في اتخاذ قرار حاسم فيها . فكانت دمشق عاصمةَ الخلافة الاموية والبؤرةَ التي انتشرت منها فكرة القَدَرِيّة والجَبْرِيّة ، لتعم فيما بعد اطراف المملكة العربية .

اتفقت جماعة من المسلمين المفكرين على القول إن الانسان

---

١ السجدة ، ١٧ .

٢ الكهف ، ٢٩ .

حرّ في تصرفاته واعماله ، ليس مسخّراً لقدرٍ حاتم مقرر ، يخلق افعاله بذاته ، دعيت بالقَدَريّة . وسمّيت الجماعةُ التي ناهضتها بالجَبْريّة . وكانتا تَعودان الى القرآن ، فتستقي كلٌ واحدة منه ما يؤيد رأيها ، ويهدم رأي خصيمتها . غير ان العامة كانوا يميلون الى الجَبْريّة ، ويتناقلون بينهم خرافة طريفة تقول ان الله بعد ان خلق آدم اخرج من جسمه الجَبّار كلَّ ذرّيته المقبلة باحجام صغيرة كالنمل ، وقسمها الى قسمين : الناجين وضعهم في جنبه الايمن ، والهالكين ادخلهم جنبَه الايسر ، بعد ان كتب على جبين كل واحد منهم اعماله ومصيره . ولم يبق للهالكين من امل في النجاة الا في شفاعة الرسل والاولياء .

موقف الامويين من القدرية والجبرية

قابل الخلفاء الامويون نظرية القدرية بكثير من الامتعاض ، رغم انهم كانوا بعيدين كل البعد عن المشاكل اللاهوتية ، منصرفين الى تدعيم ملكهم ، ونشر نفوذهم ، وبسط كلمتهم ، واظهار حقهم . قاوموا هذه الفكرة انى ظهرت ولاسيما في البيئة الشامية .

قد يعتقد المؤرخ ان من مصلحة الامويين ان يتناسوا امور السياسة ، ويسرفوا في المباحث العقائدية لعلهم ينسون ، وينسى الناس معهم استئثارهم بالخلافة ، وان يذيعوا هذه المباحث ، ليس

بين المسلمين الشاميين فحسب ، بل بين جميع المؤمنين في الحجاز والعراق ومصر وفارس . ولكن الحقيقة هي غير هذه . فالغاية التي كان يرمي اليها الامويون في مقاومة هذه النزعة الفكرية الحرة ليست في تدعيم الدين وتوجيهه توجيهاً عاطفياً صرفاً ، وقطع كل علاقة بينه وبين ما ظهر في الاراء المسيحية من مشادات مذهبية ، وخصومات مبدئية ، بل كانت غايتهم سياسية نفعية مباشرة .

كانوا يدركون ان القسم الاوفر من المسلمين لا يرضون بهم خلفاء ، بل متفقون على انهم تجاهلوا حقوق غيرهم ممن هم اهل لتسلُّم مقدرات الخلافة الاسلامية . وانهم توصلوا الى غايتهم بالدهاء والمكر والبطش ، فاقصوا آل النبي ، وقضوا على علي واولاده ، وهدم بعضهم الامكنة المقدسة ، كما شرب بعض آخر الخمر ، وصلى بالجماعة وهو ينوء سكراً . كانوا يعلمون ان المذهب الجبري هو الذي يجعل المسلمين يستسلمون ويستكينون اليهم . فاذا كان الله قدّر كل ذلك ، وكتبه بقلمه على جبين دولة الاسلام منذ الابد ، فلا حول ولا قوة ... ولا سبيل الى مقاومة مشيئته . فالاذعان خير ما يتسلح به المؤمن . والصبر درع يتقي بها مصائب الايام . فالله شاء منذ الازل ان يرتفع شأن الامويين ، بعد ان خاصموا الاسلام ، وان يصبحوا خلفاء للرسول . اذاً كان

بنو امية يحاربون فكرة القَدَرية ، ويُلِحُّون على الشعراء بذكر قضاء الله في جعلهم امناء على رسالته ، خلفاء لنبيه .

السياسة والدين

تُواجِهُ المُحققَ المعاصرَ مشاكل دولة الاسلام مزدوجة . وذلك لاجتماع السلطتين الدينية والزمنية في رجل واحد هو الخليفة ، وجماعة واحدة : الوزراء والعمال والقُضاة الذين يأتمرون بامره . فكل مشكلة دينية ظهرت في الخلافة تحولت فيما بعد الى مشكلة سياسية ، والعكس بالعكس . فما قامت جماعة شعوبية او عربية تسعى للاستيلاء على السلطان الا تَوَكَّأتْ على الدعاوة الدينية ، تحاول بها ان تدخل الى قلوب الناس ، حتى اذا استقرّت فيها كشفتْ النقاب عمّا ترمي اليه من نفوذ مباشر عالمي ، كأمر المختار ايام محمد بن الحنفية ، ونشأة الدعوة العباسية السياسية تحت ستار التشيع الديني ، وَتَسَتُّرِ الباطنية بشبيه ذلك لتحقيق مآربها من السؤدد والنفوذ . وما تكتلت جماعات قوية في سبيل الفتح والقَهر الا أتْشَحَتْ بوشاح ديني . فرمز الشخص القائم بها الى الدنيا والآخرة ، كالموحدين في شمالي افريقية والاندلس .

تعددت الفرق لانها كانت مظهراً من مظاهر الثورة على النظام المألوف ، وسبيلا يؤدي الى القضاء على ما يحجز حرية الافراد ، ووسيلة الى الاجتماع والتآلف والتألب . وكثر الاضطهاد

وبث العيون ، واحصاء الانفاس ، وتشريد من يقولون بغير ما يقول السلطان ، وتشجيع اصحاب الامر الاشياع والاتباع للرد على المخالفين ، وانشاء المدارس الخاصة التي تثبت النظرية الرسمية في الامور الطارئة على الامة كالمدارس النظامية السنيّة والمدارس الفاطمية الباطنية . ولا نغالي اذا قلنا ان درس نشوء الفرق ونموّها وتشيعها وانتقالها من طور الى آخر ، هو درس لتاريخ الاسلام السياسي ، وما اضطرب فيه من نزعات واهواء ، وما اختلج في خواطر الناس من طموح وثورة .

الخوارج

صفين ومصير الاسلام

من الثابت ان موقعة صفين لو قدر لها ان تدور بين جموع العراقيين والشاميين وتنتهي انتهاء طبيعياً ، بغلبة احد الفريقين ، لكانت نتيجتها أبعد اثراً في مصير الاسلام من موقعة الجمل . وذلك لان الفريقين قويان بعد ان تألب وراء علي فرسان الحجاز والعراق واليمن الذين ابلوا البلاء الحسن في فتوحات فارس . وسارت وراء معاوية الطلائع العربية المظفرة التي قلّصت ظل الروم عن بلاد الشام ، واخذت تتحفز لامر عظيم على شواطىء بيزنطية .

وانصراف العرب في صفين الى التقاتل والتناحر يُثلج صدور الروم الواجفين ، والفرس الموتورين . لذلك نرى ان المسلمين كانوا ينظرون الى الحملة نظرة الواجس الخائف . ويتنسمون ريح الصلح والوفاق . واخذت الرسل تختلف بين الجمعين لعلها تهتدي الى وسيلة تحول دون اراقة الدماء العربية .

التحكيم ونتائجه

جاء التحكيم ، وكتبت شروط الصلح ، فانصرف معاوية برجاله الى دمشق ، وهو واثق من ان التحكيم لن يسفر الا عما يرضيه ، فيثبت حقه ، ويخذل خصمه . وكان جنده يشعرون ان في قبول العراقيين بنظرية التحكيم نصراً مبيناً لهم ، بعد ان كادت تقهر سيوفهم ، ويدال لعدوهم منهم . اما الحالة في جيش علي فكانت على غير هذا الوجه .

خرجوا مع علي الى صفين وهم متوادون احباء ، ورجعوا متباغضين اعداء . ما برحوا من عسكرهم حتى فشا فيهم الاختلاف ، فاقبلوا يتدافعون الطريق كله ، ويتشاتمون ، ويضطربون بالسياط . يقول بعضهم « يَا أَعْدَاءَ ٱللهِ خَادَعْتُمْ فِي أَمْرِ ٱللهِ وَحَكَّمْتُمْ » ويقول آخرون « فَارَقْتُمْ إِمَامَنَا وَفَرَّقْتُمْ جَمَاعَتَنَا . » فلما دخل علي الكوفة لم يدخل معه الفريق الاول ، بل انصرفوا حتى اتوا حروراء ، فنزل بها منهم اثنا عشر الفاً .

حروراء

كان هؤلاء الجنود من اشد العرب بأساً ، وكان علي بحاجة ماسة الى سواعدهم ، فحاول بكل ما اوتي من مرونة وروية وفصاحة ، ان يستميلهم اليه ويرجعهم الى صفوفه . فلحق بهم الى حروراء ، واخذ يجادلهم ويجادلونه ، ويبينون له انه اخطأ في قبول نظرية التحكيم ، لان في هذا الرضا انتقاصاً لحقه في الامامة ، وان من يشك في امر عادل فقد اخطأ واساء ، وانه اذا كان في صفوفهم جماعة من الذين رضوا بالتحكيم اولا فهم بذنبهم مقرون ، والى ربهم تائبون . فما عليه الا ان يتوب توبة هؤلاء ، ويستغفر ربه حتى يعودوا اليه ، ويخلصوا له ، ويسترجعوا عهد الجهاد . وكان التحكيم آنئذ لم يسفر عن نتيجة بعد . والجميع ينتظرون ما ينتهي اليه اجتماع ابي موسى الاشعري بعمرو بن العاص . ولكن علياً تأتي الى اقناعهم « بان التحكيم ليس معناه حكم الرجال بل القرآن ، والقرآن خط مسطور بين دفتين ، وهو لا ينطق وانما ينطق به الرجال [٢] » . فرجع معه منهم جمع غفير . فلما استقروا بالكوفة اشاعوا ان علياً يقول قولهم . فاتى الاشعث

---

١ تقع في ضواحي الكوفة ، وتبعد عنها ميلين .

٢ تاريخ الطبري ج ٦ ص ٣٧ . الفَرْق بين الفِرَق للبغدادي ص ٥٧ .

ابن قيس الخليفة فقال : «يا أمير المؤمنين ، إن الناس قد تحدثوا أنك رأيت الحكومة ضلالا ، والاقامة عليها كفراً ، وثبت .» وكاد الامر يحدث في جموع المسلمين اضطراباً وشغباً . فخطب علي الناس فقال : «من زعم أني رجعت عن الحكومة فقد كذب ، ومن رآها ضلالا فهو أضل منها .» فغادر الخوارج الجامع ، وقرروا الانصراف عنه .

ادرك علي ما يريدون القيام به . غير انه آثر المثابرة على سياسة اللين التي اثمرت اول الامر . فسيّر اليهم ابن عباس ، فرحبوا به واكرموه . فرأى منهم جباهاً قرحةً لطول السجود ، وأيدياً كثفنات الابل ، وعليهم قمص مرحضة ، فرجع منهم الفان ، وبقي الآخرون مصممين على نصرة مبدئهم بحد سيوفهم[1] .

رجال الخوارج

تألفت جموعهم الاولى من العرب الخلص رجال الصحراء ، ولاسيما من القبائل ذات البأس والشجاعة مثل قبيلة تميم ، ومن ابطال القادسية ورؤساء الجند ، وجماعة من اهل الصيام والصلاة ، وبعض القراء من جند علي ، انضموا اليهم بعد ان فشل التحكيم وآل الى ما هو مشهور في كتب التاريخ .

---

١ ابن عبد ربه : العقد ج ٢ ص ٣٨٨ — ٣٨٩ ، طبعة ١٩٤٠ ، القاهرة .

غير ان جماعة من غير العرب رأوا في ذلك فرصة سانحة ، فانضموا الى الخوارج وهم متأكدون من ان انقسام المسلمين وتطاحنهم يضعف من شأنهم ، فيستعيدون هم حياتهم السابقة ، لاسيما وان الفرس الذين حاربوا العرب في القادسية وسواها لا يزالون احياء . ولم يقبل القسم الاكبر منهم الاسلام ديناً الا رهبة او رغبة في امر ، كامنين في صدورهم البغض للعربي المغفر [١] . واعان بعض رجال العرب من ذوي الشجاعة والمكانة الحيادَ في هذه الازمة النازلة بالامة . فاعتزلوا الى جانب ، فلم يكونوا مع علي في حروبه ولا مع خصومه . واشهر هؤلاء من الصحابة كعبد الله بن عمر ، وسعد بن ابي وقّاص ، ومحمد بن مسلمة الانصاري ، واسامة بن زيد بن حارثة الكلبي [٢] .

النهروان

اتفق الخوارج من اهل البصرة والكوفة وقصدوا الى النهروان ، وبايعوا عليهم عبد الله بنَ وَهْب الرَّاسبيّ لعشر خلون من شوال سنة ٣٧ هـ . وانتقلوا في هذا العهد من الكلام والجدل الى السيف والعمل ، واخذوا يقتلون كل من لا يشاطرهم عقيدتهم ، ويعترف بخليفتهم ،

---

١ الدكتور حسن : تاريخ الاسلام السياسي ص ٤٦٥ .
Massé : L'Islam, p. 145.

٢ الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٤٤ .

ويلعن عثمان وعلياً . وبدأوا منذ ذلك الحين يتأولون الايمان والعقيدة ، ويجتهدون في تأليف رأي خاص لهم في هذه المسألة . فصدرت عنهم اعمال تدل على الاضطراب والحيرة والتناقض . فيقدمون على الفتك بمن لا يعتقدون بعقيدتهم ، ولا يرون رأيهم في الخصومة الطارئة على الامة . من ذلك انهم لم يتورعوا عن الفتك بعبد الله بن خبّاب . فقد لقوه وفي عنقه المصحف ومعه امرأته وهي حامل ، فقربوه الى الشاطئ وذبحوه ، وقتلوا زوجه ، وبقروا بطنها ، واخرجوا جنينها ، رغم ان عبد الله كان من كبار الصحابة ، واحبهم الى علي ، وعامله بالمدائن [1] . اما موقفهم من النصارى واليهود والمجوس فكان اكثر ليناً وهوادة . فاذا لقوا مسلماً ونصرانياً قتلوا الاول ، واوصوا بالثاني خيراً ، محافظة على ذمة الرسول [2] .

كان مقتل عبد الله عهداً جديداً في تاريخ الخوارج . فان علياً بدأ يشعر ان هذه الجماعة الخارجة تؤلف خطراً على الاسلام ،

---

١ ابن عبد ربه : العقد ج ٢ ، ص ٣٩٠ . الطبري ج ٤ ، ص ٦٠ — ٦١ .

٢ حدث انهم ساموا في احد الايام رجلا نصرانياً بنخلة فقال : هي لكم هبة . قالوا لا نأخذها الا بثمن . فقال : ما اعجب هذا ! تقتلون مثل عبد الله بن خباب ، ولا تقبلون منا نخلة الا بثمن (العقد ج ٢ ، ص ٣٩١) .

وان شأن اصحابها لا يقتصر على الخلاف الكلامي ، وانما هم عامدون الى الهدم وسفك الدماء ، فلا بد من ردعهم ، ومعاقبة المجرمين منهم ، والاقتصاص لعبد الله وسواه من ضحاياهم . فسار اليهم بجيش من خمسة وثلاثين الف محارب . فلما دنا منهم بعث اليهم بالحرث بن مرة العبدي رسولا ، يدعوهم الى الرجوع ، فقتلوه وبعثوا الى علي : ان تبت من حكومتك ، وشهدت على نفسك بايمانك ، وان ابيت فاعتزلنا حتى نختار لانفسنا اماماً ، فانّا منك براء . فطلب منهم علي ان يرسلوا اليه بالقتلة ، الذين فتكوا بعبد الله والحرث ليقتلهم بهما ، ويتركهم وشأنهم الى ان ينهي امره مع معاوية ، لعل الزمان يقلب قلوبهم . فبعثوا اليه قائلين : « كانا قتلة اصحابك ، وكلنا مستحل لدمائهم ، مشتركون في قتلهم [1] . »

واخبره الرسول — وكان من يهود السواد — ان القوم يودون عبور نهر طبرستان [2] في هذا الوقت ، فسار بجنده اليهم . واشرف عليهم وقد عسكروا بالموضع المعروف بالرميلة . فدعاهم الى الرجوع والتوبة ، فابوا ورموا اصحابه ، فدار القتال بين الفريقين .

---

١ العقد ج ٢ ، ص ٢٩٠ .

٢ على النهر قنطرة تعرف بقنطرة طبرستان

لا تخلو رواية المؤرخين عن هذه الموقعة من المبالغة والتحريف. كادوا يجمعون على ان علياً لم يبق من جيش الخوارج المؤلف من اربعة آلاف جندي سوى عشرة رجال. ولم يفقد هو من رجاله سوى عشرة. غير ان ابن عبد ربه في العقد يرى ان الخوارج في النَّهروان كانوا ستة آلاف، فقتل علي منهم الفين وثمانمائة، وتشتت الباقون. وكان بالكوفة من الخوارج الفان ينتظرون امرهم

موقعة النَّهروان تافهة في ظاهرها، عظيمة في نتائجها. فيها عرف الخوارج «عماد الدم»، ومنها خرجوا موتورين يذخر في صدورهم الحقد على اصحاب السلطان، وعلى علي بنوع خاص، وتثور في نفوسهم عزيمة الثأر والانتقام لاصحابهم الذين صرعوا في المعركة. وكأنَّ الدماء التي سقت تربة النَّهروان كان لا بد منها لدعم مذهبهم، وشحذ هممهم، وصقل سيوفهم.

نظام الخوارج

بعد قيام المروانيين في الشام اتسعت رقعة النفوذ لدى الخوارج، وبدأوا يظهرون في كل مكان من اطراف الجزيرة العربية والبلاد الفارسية، ولاسيما

---

١ المسعودي: مروج الذهب ج ٢، ص ٢٨٤ — ٢٨٥.

٢ العقد ج ٢، ص ٣٩٠.

خراسان . واصبح كل حانق من امر لا يوده ، او راغب في شأن لا يناله ، او موتور من عامل او امير ظلمه ، يرى في جماعة الخوارج مظهراً من مظاهر الثورة على الحكام ، وذوي السلطان . وكانت فصول العصيان تتمثل على وتيرة واحدة: يكتب لها الفوز حيناً ، ثم تلطخ بدماء رجالها . اما اجدر هذه الفصول بالذكر ، على ما يبدو لنا ، فهي الثورات التي قاموا بها ايام الحجاج بن يوسف الثقفي ، ومروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين .

اخلاقهم

كان الخوارج من اشجع فرسان العرب ، واكثرهم طلباً للموت . منهم من طُعِنَ ، فانفذه الرمح ، فجعل يسعى الى قاتله ويقول : « وعجلت اليك رب لترضى . » وكانت معاركهم صفحات ناطقة بالبطولة والفروسية . يرونَ في حد السيف افق النعيم ، وفي الاستشهاد نهاية الامل . وكانوا — ولاسيما الجماعة الذين ظهروا في الطور الاول ، ايام الامويين — صادقين في مذهبهم ، مخلصين في جهادهم ، مؤمنين بدعوتهم [1] . والغريب ان النساء لعبن دوراً هاماً عندهم ،

---

١ روي ان حوثرة الاسدي خرج فيمن خرجوا على معاوية ، فتوسل معاوية له بابيه ان يكف عن الخروج . فاتى اليه ابوه بولده ، لعله يحن

ويظهر انهن كن يكثرن من الخروج مع الرجال ، ولاسيما ايام زياد ، حتى اتى بامرأة منهم فقتلها ، ثم عرّاها . فلم تخرج النساء الا بعد ايامه . وكن اذا ارغمن يقلن : « لولا التمرية لفعلنا [١] . » وكانت ام حكيم زوج قطري تحمل على الفرسان وتقول :

أحمل رأساً قد سَئِمْتُ حملَهْ وقد مَلِلتُ دهْنَهُ وغسلَه
ألا فتى يحمل عني ثقلَهْ ؟!

وعندما هاجم شبيب بن يزيد الشيباني الكوفة سنة ٧٦ هـ كان في جيشه مائتان من النساء ، قد اعتقلن الرماح ، وتقلدن السيوف .

اذا أردنا ان نكوّن لنا فكرة واضحة عن اخلاق الخوارج علينا بمطالعة القسم الثاني من الخطبة التي القاها ابو حمزة الخارجي في مكة [٢] . فهي تبين بجلاء ما امتازت به هذه الطائفة من

فيعود ، فقال : يا ابت اني الى طعنة نافذة اتقلب فيها على كعب رمح اشوق مني الى ولدي . فلما التقى الجمعان طلب منه ابوه ان يبارزه ، فقال : يا ابتِ لك في غيري مندوحة ، ولي في غيرك عنك مذهب . فقتله رجل من طي ، فرأى اثر السجود قد لوح جبهته (العقد ج ١ ، ص ٢٥٣ – ٢٥٤) .

١ العقد ج ١ ، ص ٢٥٩ .

٢ دخل ابو حمزة الخارجي مكة ، فصعد منبرها متوكئاً على قوس له

الاستخفاف بالموت ؛ والمغالاة في العبادة والترفع عن امور الدنيا ، والتطلع الى الحقيقة التي يتلمسونها في مبدئهم

انقسام الخوارج

من الثابت تاريخياً ان الخوارج تفرقوا بعد موت الخليفة يزيد بن معاوية الى

عربية ، فحمد الله ، واثنى عليه ، وذكر شيئاً من تعاليم الاباضية ، ثم اقبل على اهل الحجاز فقال :

« يا اهل الحجاز ، اتعيرونني باصحابي ، وتزعمون انهم شباب !! وهل كان اصحاب رسول الله الا شباباً . . . اما والله اني لعالم بتتابعكم فيما يضركم في معادكم ، ولولا اشتغالي بغيركم عنكم ، ما تركت الاخذ فوق ايديكم . شباب والله مكتهلون في شبابهم ، غضيضة عن الشر اعينهم ، ثقيلة عن الباطل ارجلهم ، انضاء عبادة ، واطلاح سهر . نظر الله اليهم في جوف الليل منحنية اصلابهم على اجزاء القرآن . كلما مر احدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً اليها ، واذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة ، كأنّ زفير جهنم بين اذنيه . موصول كلالهم بكلالهم ، كلال الليل ، بكلال النهار . قد اكلت الارض ركبهم وايديهم وانوفهم وجباههم . واستقلوا ذلك في جنب الله ، حتى اذا رأوا السهام قد فوقت ، والرماح قد اشرعت ، والسيوف قد انتضيت ، ورعدت الكتيبة ، بصواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله . ومضى الشاب منهم قدماً ، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه . فاسرعت اليه سباع الارض ، وانحطت اليه طير السماء . فكم من عين في منقد طير طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت عن معصمها ، طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله . » (الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ، ص ١٠٢ — ١٠٣) .

شيع عديدة ، لكل واحدة منها مبدأ سياسي معين . تعمل لرجل معروف من زعمائها ، وتنهج في سبيل تسويده وترئيسه نهجاً خاصاً . وتنظر الى الاسس الدينية واللاهوتية ، التي قال بها رجال المحكمة الاولى ، نظرة تغاير نظرة الفرق الاخرى . غير اننا اذا نظرنا الى الخوارج في عهدهم الاول التمهيدي ، نراهم يكادون يتفقون جميعاً في المسائل العامة . فمذهبهم يقوم على مسألة الامامة ، لانهم يعتقدون ان اختيار الامام مفوض الى الامة . تختار رجلا منها ينفذ فيها احكامه ، سواء كان قرشياً او غيره من المسلمين واهل العدالة والايمان . ولا مراعاة في ذلك للنسب او المقام . اما اذا شذّ هذا الامام عن طريق الصواب ، او اظهر تقاعساً في القيام بواجبه ، فللأمة حق خلعه واستبداله . ولم يقر الخوارج الا باثنين من الخلفاء الراشدين هما ابو بكر وعمر ، وهذا الاخير اميزهما . ثم هم يعترفون بالقسم الاول من خلافة عثمان ، ويتبرأون منه عندما اساء تدبير امر الاسلام ، ويرفضون الاعتراف بامامة علي بعد ان سلم بالتحكيم . واما موقفهم من اصحاب الجَمَل وصفّين ، فهو اشد عنفاً ، لانهم يكفرون طلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص[١] .

---

١ Massé : L'Islam, p. 148.

ونتج عن هذه العقيدة ، انهم لا يعترفون بحق الوراثة في الخلافة.

العقيدة

يمثل الخوارج منذ ظهورهم العنصر المحافظ في الدين . فهم ازاء ثورتهم على ما احاط بالسياسة الاسلامية العامة من اضطراب ، ثائرون ايضاً على ما بدأ يلحق الديانة نفسها من الوهن والضعف . كان يمثل هذه الناحية جماعة القراء والعبّاد ، ومن انضم اليهم من النساك . نظروا الى العمل باوامر الدين من صلاة وصدق وعدل وطهارة كجزء من العقيدة. فالايمان وحده لا يكفي ، بل لا بدّ من العمل الضروري لتمام الدين .

تطور هذا الرأي فيما بعد ، حتى زاد بعضهم على رأي السنّة في ان الطهارة تَفسد بما يخرج من الجسم من الاقذار ، او بما يمسه منها . فقالوا : « ان هذه الطهارة فاسدة ايضاً بما يخرج من الفم من الكذب ، او الاغتياب ، او مما يسيء الى غيرنا ، او بما لا نجرؤ على التلفظ به امامه . وتسقط ايضاً في حالة الغضب والتلفظ بالشتائم والسباب واللعنات ، والكلام الشنيع عن الناس والحيوانات ، دون ان يستحقها هؤلاء . فمن فعل شيئاً من هذا وجب عليه الوضوء قبل الصلاة [١] . وهم على العموم

---

١ Goldziher ; Le dogme et la loi de l'Islam , Geuthner, Paris 1920.

اما المتطرفون في المحافظة منهم ، فقد بالغوا في الامر حتى

يحاربون البذخ والترف ويحرمون الموسيقى واللهو والشراب .

كان من نتيجة تكفيرهم لجماعة المسلمين انهم عرضوا لمصير مرتكب الكبائر ، اي الذي يخالف اساً من الاسلام ، او يزني او يسرق او يقتل ، او يسبب بخداعه مصائب للآخرين . فالذي يقترف كبيرة يمرق من الاسلام ، ويستحل المتطرفون دمه ودم عياله . غير ان هذه النقطة قد تعدّل النظر اليها باختلاف الفرق التي نشأت فيما بعد . وسنعرض لهذا الاختلاف في مكان آخر . ومنهم من يعتقدون ان جميع المسلمين الذين لا يرون رأيهم في الخروج قد ارتكبوا الكبائر ، لذلك هم يضطهدونهم ، ويسفكون دمهم ، ويدعون المسيحيين واليهود والمجوس احراراً[1].

كان تمسكهم بالقرآن وحرفيته شديداً . فالاغلبية لا يعترفون الا بالقرآن مرجعاً شرعياً . واما ما سواه فلا يحق ان ينظم

زعم احدهم ان كل ذنب ، صغيراً كان ام كبيراً ، ولو كان اخذ حبة خردل بغير حق ، او كذبة خفيفة على سبيل المزاح ، فهي شرك بالله ، وفاعلها كافر مشرك ، مخلد في النار ، الا ان يكون من اهل الجنة . وهذا حكم طلحة والزبير (ابن حزم : الفصل ج ٤ ، ص ١٤٦) .

١ من ذلك انّ واصل بن عطاء — رأس المعتزلة — وقع في ايديهم ، فادعى انه مشرك مستجير ، ورأى هذا ينجيه منهم اكثر مما تنجيه دعواه انه

حياة الجماعة . وهو كلام الله القديم ، يحتوي على جميع العلوم ، ويجب ان يؤخذ كما هو دون شرح او تأويل [١] ، وبعض فرقهم تقول انه مخلوق

هذه هي الاسس العامة التي ارتكزت عليها تعاليم جميع الفرق الخارجة . ومن هذه المنابع تشعبت الجداول الجدلية التي اتجهت تعاليمها في السبيل الذي سارت فيه تعاليم المعتزلة والشيعة من حيث الالتواء والاضطراب . وبدأ اهل الشام واليمن والحجاز والعراق وفارس والمغرب والاندلس من الخوارج يغيرون على هذه الاسس البسيطة الساذجة التي لا تحذلق فيها ولا تفلسف [٢] فيعملون فيها جدلهم . حتى زخرت كتب التاريخ باسماء فرقهم وزعمائهم . وكاد الدارس الحديث يتيه في ذلك البحر الوسيع .

مسلم مخالف لهم .

١ Goldziher : Le dogme...p.p. 162-163.

٢ Massé : L'Islam, p. 147-148. غير ان هذا لم يمنع بعضهم من الشك في سورة يوسف والسورة التي تلعن ابا لهب ، لانه — كما يعتقدون — لا يجوز ان يكون في القرآن ذكر للغرام ، ولا ان يفوه الله باللعنات على ابي لهب منذ الازل Goldziher : Le dogme... p.p. 162-163.

٣ الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ، ص ١٠٨ .

فرق الخوارج وتعاليمهم الخاصة

اشهر الفرق التي نشأت من الخوارج هي : الازارقة [1] ، والنجدات ، والصفرية ، والاباضية . وتلخص تعاليم كل واحدة منها بما يلي

الازارقة : هم اتباع ابي راشد بن الازرق . خرجوا من البصرة الى الاهواز [2] ، وتغلبوا عليها وعلى كورها وما وراءها من بلدان فارس وكرمان ايام عبد الله ابن الزبير ، وقتلوا عماله بهذه النواحي ، وعندما مات تافع بايعوا قطري بن الفجاءة ، وسموه امير المؤمنين . وانتهى امرهم على يد المهلب بن ابي صفرة . فحاربهم تسع عشرة سنة الى ان فرغ من امرهم في ايام الحجاج .

تدور تعاليمهم الخاصة حول النقاط الآتية :

ا ــ يكفرون علياً ويصوبون عمل عبد الرحمن بن ملجم . وزادوا على ذلك تكفيرهم عثمان وطلحة والزبير وعائشة وعبد الله ابن عباس .

ب ــ يكفرون القعدة [2] ، ويظهرون البراءة من الذين لا يجاهدون

---

١ الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ، ص ١٢٨ .

٢ اي الذين لا يشاركونهم في الجهاد لنشر مذهبهم .

في صفوفهم، ولا يهاجرون اليهم. ولا يجيبون احداً من غيرهم اذا دعاهم للصلاة ، ولا يأكلون من ذبائحهم ، ولا يتزوجون منهم ، وهم في نظرهم مثل كفار العرب وعبدة الاوثان ، وبلادهم دار حرب ، ويبيحون قتل اطفال المخالفين ونسائهم ، ويحكمون ان ابناء المشركين في النار مع آبائهم .

ج — يسقطون الرجم عن الزاني ، اذ ليس في القرآن ذكر له ، ويسقطون حد القذف عمن قذف المحصنين من الرجال ، مع وجوب الحد على قاذف المحصنات من النساء .

د — ان التقية غير جائزة في قول ولا عمل ، وعلى من يذهب مذهبهم ان يظهره دون خوف ، وان ادّى به الامر الى الاستشهاد.

هـ — يجمعون على ان من ارتكب كبيرة من الكبائر كفر كفراً خرج به عن الاسلام ، « ويكون مخلداً في النار مع سائر الكفار ».

اما فيما يتعلق بالمبادىء الرئيسية التي اشرنا اليها في مكان آخر ، فان الازارقة سلموا بها اسوة بسواهم من الخوارج

---

١ غير ان ابا اسماعيل البطيحي — وهو من غلاة الازارقة — زاد عليهم فقال : ان لا صلاة واجبة الا ركعة واحدة بالغداة ، وركعة اخرى بالعشي. ورأى الحج في جميع شهور السنة ، وحرم اكل السمك حتى يذبح ، وترك اخذ الجزية من المجوس . وقال ان اهل النار في النار بلذة ونعيم ،

النجدات : هم اتباع نجدة بن عامر الحنفي . خرج من اليمامة مع عسكره يريد اللحوق بالازارقة . فاستقبله ابو فديك ، وعطية بن الاسود الحنفي في طائفة خالفت نافع بن الازرق . فاخبروه بما احدثه نافع من بدع ، وبايعوا نجدة ، وسموه امير المؤمنين . غير ان امرهم لم يدم على هذه الحال ، بل تحولوا الى الاختصام لخلاف نشب بينهم . ففارقه ابو فديك وعطية . ونشأت فرقتان بعد مقتل نجدة هما العَطَوِيَّة ، نسبة الى عطية ، والفديكية ، نسبة الى ابي فديك [١] .

تعاليمهم الخاصة تدور حول النقاط الآتية :

ا — يعتقدون ان التقية جائزة في القول والعمل ..

ب — يجمعون على انه لا حاجة للناس الى امام قط . وانما عليهم ان يتناصفوا بينهم . فان رأوا ذلك لا يتم الا بامام يحملهم عليه ، امكنهم تنصيبه .

ج — لا يجارون الازارقة في رأيهم بالقعدة ، بل قالوا القعود جائز ، والجهاد اذا امكن افضل [٢] .

واهل الجنة كذلك : (ابن حزم : الفصل ٤ ، ص ١٤٤)

١ الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ، ص ١٣٢ .

٢ الفرق بين الفرق للبغدادي ، ص ٧٧ . الملل والنحل للشهرستاني ،

د ـ من كذب كذبة صغيرة ، او عمل عملا قبيحاً ، وان كان تافهاً ، واصرّ عليه فهو مشرك ، وكذلك ايضاً في الكبائر ، وان من أتى الكبائر غير مصر عليها فهو مسلم اذا كان من موافقيهم . ويجوز ان يعذب الله الناس من انصارهم بذنوبهم ، لكن في غير النار . واصحاب الكبائر من النجدات ليسوا كفاراً ، واصحاب الكبائر من غيرهم كفار .

الصفرية : هم اتباع زياد بن الاصفر . انتشروا في اواخر العهد الاموي في جميع البقاع الاسلامية حتى وصلوا الى المغرب حيث تعاونوا والاباضية في اثارة البربر . وقاوموا هناك سلطة الخلافة الاموية مقاومة عنيفة ، غير انهم ساعدوا على نشر الاسلام في شمالي افريقية . الى ان غمرتهم الموجة الاباضية فقضت على قسم كبير منهم ، وانضم القسم الآخر الى الفرقة الجديدة

تدور تعاليمهم الخاصة حول النقاط الآتية

ا ـ لا يكفرون القعدة عن القتال اذا كانوا موافقين لهم في الدين والاعتقاد ، ولا يحكمون بقتل اطفال المشركين وتكفيرهم [١] ، وسلموا بايقاف الحرب موقتاً ضد المسلمين الآخرين.

ج ١ ، ص ١٣٢ .

١ غير ان بعض غلاتهم قالوا بوجوب قتل من امكن قتله

ويجوزون تزويج المسلمات من كفار قومهم في دار التقية دون دار العلانية .

ب — يرون ان التقية جائزة في القول دون العمل

ج — من خصائصهم البارزة الاعتدال في العقيدة . فيحتلون مكانة متوسطة بين الازارقة والاباضية . وكان لتوقف بعضهم عن القتال والجهاد اثر كبير في تشعب الصفرية الى فرق ثنوية .

الاباضية : هم اصحاب عبد الله بن اباض التميمي الذي خرج ايام مروان بن محمد . يختلفون عن غيرهم من فرق الخوارج في انهم كثيرو الاعتدال . ثاروا في آخر العهد الاموي في شبه الجزيرة ، مما ساعد على انتشار الدعوة العباسية . وعندما قضي على حركتهم في الاماكن المقدسة ، التجأوا الى عمان وزنجبار وافريقية الشمالية ، حيث تعاونوا هم والصفرية في تحويل البربر عن عقيدة الجماعة . فقد اغرم البربر ، بعد ما قاسوه من عمال الخلفاء من العسف والظلم ، بمبادىء الخوارج التي تعلم بالمساواة الشاملة بين المسلمين . واستولت

---

١ يقول الغلاة : من قال : لا اله الا الله ومحمد رسول الله بلسانه ، ولم يعتقد ذلك بقلبه ، بل اعتقد الكفر او الدهرية او اليهودية او النصرانية فهو مسلم عند الله مؤمن . ولا يضره اذا قال الحق بلسانه ، وما اعتقد بقلبه ، وهو قول فئة سميت بالفضيلية . (الفصل ج ٤ ، ص ١٤٥)

جماعة الاباضية على القيروان . وترعّم حركتهم واحد منهم فارسي الاصل يدعى ابن رستم . ولم يمض زمن قليل على الحركة حتى تمّ لهم الامر في افريقية الشمالية كلها ، واخذوا يهددون بالانفصال التام عن الخلافة . ولم يتوصل العباسيون الى اعادة النظام الا عام ٧٧٣ م بعد حملات متعددة . وظلت جماعة الاباضية صاحبة نفوذ مدة مائة وثلاثين عاماً الى ان تغلب عليهم الفاطميون .

وبعد سنة ٩٠٩ م ارغم الفاطميون الاباضية على الالتجاء الى الصحراء . وهناك اخذوا يتشعبون الى شيع ، لا يزال لها بعض الاثر في الوقت الحاضر

تدور تعاليمهم الخاصة حول النقاط الآتية[١] :

١ ــ المخالفون من اهل القبلة كفار غير مشركين ، والتزاوج معهم جائز . وموارثتهم حلال . وغنيمة اموالهم من السلاح والكراع عند الحرب حلال ايضاً ، وما سواه حرام . فدار مخالفيهم من اهل الاسلام دار توحيد ، الا معسكر السلطان فانه دار بغي .

---

١ Massé : l.'Islam. p. 146-147.

٢ ذهب بعض غلاتهم الى القول ان من كان من اليهود والنصارى يقول: لا اله الا الله ، ومحمد رسول الله الى العرب لا الينا ، كما تقول العيسوية من اليهود ، فانهم مؤمنون ، اولياء الله تعالى ، وان ماتوا على التزام شرائع اليهود والنصارى .

وحرام قتلهم وسبيهم في السرغيلة ، الا بعد نصب القتال ، واقامة الحجة . واجازوا شهادة مخالفيهم على اوليائهم .

ب — مرتكب الكبائر موحّد لا مؤمن .

ج — أفعال العباد مخلوقة لله ، ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازاً .

د — يفنى العالم كله اذا فني اهل التكليف .

هـ — يجوز ان يخلق الله رسولاً بلا دليل ، ويكلف العباد بما يوحي اليه ، ولا يجب عليه اظهار المعجزة .

وانقسمت الاباضية الى ثلاث شيع : الحفصية ، والحارثية ، واليزيدية .

الشيعة

اصل الشيعة

يرقى اصل الشيعة الى ازمان مشكلة الخلافة . فالمؤمنون الذين كانوا ، ايام الخلفاء الراشدين الثلاثة ، يميلون الى علي بن ابي طالب بنوع عام ، دون ان يجهروا بسخطهم ... تابعوا فيما بعد موقفهم السلبي عندما انتزعت الخلافة من علي وولديه .

من هذه الفئة يمكننا ان نذكر سلمان الفارسي القائل

« بايعنا رسول الله على النُصْح للمسلمين ، والائتمام بعلي بن ابي طالب والموالاة له . » ومنهم ايضاً ابو سعيد الخدري الذي يقول: « أمر الناسُ بخمس ، فعملوا باربع ، وتركوا واحدة . » ولما سئل عن الاربع قال : « الصلاة والزكاة وصوم شهر رمضان والحج . » قيل له : « فما الواحدة التي تركوها ؟ » قال : « ولاية علي بن ابي طالب . » قيل له : « انها لمفروضة معهن ؟ » قال : « نعم هي مفروضة معهن . » ومنهم ابو ذرّ الغفاري ، وعمار بن ياسر ، وحذيفة بن اليمان ، وذو الشهادتين خزيمة بن ثابت ، وابو ايوب الانصاري ، وخالد بن سعيد بن العاص ، وكثير امثالهم [١] .

لم يكتف الاشياع بالسلبية الصامتة ، بل انتقلوا الى موقف صاخب يضطرب بالفتنة ، ويغرق احياناً في الدماء . فاعلنوا ان الخلافة حق لآل النبي ، ولصهره وابن عمه ، ولسِبْطَيه من بعده ، ولاولاده في المستقبل . واما استيلاء بني امية عليها فليس سوى اغتصاب لحق العلويين المقدس .

وكان لا بد لهذه الجماعة التي نشأت حول فكرة سياسية معينة ، من ان تتخذ لها شكلاً حزبياً ، وان تقوم على

---

١ عبد الرزاق الحسني : تعريف الشيعة ص ٧ ـ ٨ .

مبادىء دينية تدعم ما تذهب اليه من سياسة . فالخليفة في رأيها لا يتعين باجماع المؤمنين ، بل الامام وهو الرئيس الروحي والزمني ، يتعين بارادة سماوية . وهو واحد في كل زمان ، ينحصر في آل البيت .

علي في نظر الشيعة هو في نظر السنَّة من اوسع المؤمنين علماً ، يسميه الحسن البصري « ربّاني هذه الامة » . اما الشيعة فتغالي في شأنه ، وترى ان الرسول عَهد اليه بتعاليم خفية لا يعرفها احد من الصحابة ، لانهم ليسوا اهلاً لمعرفتها . وهذه التعاليم يتناقلها بعض آل البيت عن بعضهم .

اختاره النبي ليكون خلفاً له في نشر الدعوة ، وفي ارشاد المسلمين . فهو اذاً وصيُّه . ومن هنا نشأ الاختلاف بين السنَّة والشيعة ، لان الاولى لا تسلم له باكثر من لقب خليفة النبي و« امير المؤمنين » وهما لقبان عرف بهما الخلفاء الراشدون الثلاثة الذين جاؤوا قبله ، ولم يشتهر ابو بكر الا باولهما .

ولعل علياً عرف في حياته جماعة من الاتباع غالوا في النظر اليه ، واسرفوا في المغالاة ، حتى كادوا يؤلهونه ، او ألهوه ، كما حدث لعبد الله بن سبأ ، الملقب بابن السوداء اليهودي الذي اسلم ، فادخل في دينه الجديد ما عرفه عن اليهودية والنصرانية

والمزدكية . فقد سجد امام علي وقال له : « انتَ انتَ الله ! » فارسله الى المدائن ، واحرق آخرين قالوا مثل هذا القول .

وكان الاشياع الاولون يرون ان ورثة علي الشرعيين في الامامة ولداهُ من فاطمة ، ثم من تحدر منهما . فكل واحد من هؤلاء هو وصي سلفه . نظم الله تسلسلهم وتتابعهم منذ الازل . فتنتقل « ولايتهم » بالوراثة دون انقطاع . وهكذا اخذت العناصر الدينية تتغلب على العنصر السياسي في الشيعة . وشددت على الناحية الدينية عندما رأت الامويين ينصرفون عنها ولا يعنون بها الا قليلاً .

موقف الامويين من الشيعة

كان الامويون لا يألون جهداً طيلة ايامهم ، ان يخملوا ذكر علي وولده ، ويطفئوا نورهم ويكتموا فضائلهم ومناقبهم وسوابقهم . فان معاوية ويزيد ، ومن كان بعدهما من بني مروان ، وذلك نحو ثمانين سنة ، لم يدعوا وسيلة لحمل الناس على شتم علي ولعنه . وعندما بُويع معاويةُ اقام المغيرة بن شعبة خطباء يلعنون علياً .

قال ابن عباس لمعاوية : « الا تكف عن شتم هذا الرجل؟ » قال : « ما كنت لافعل حتى يربو عليه الصغير ، ويهرم فيه الكبير . » ولم يزل السيف يقطر من دماء ابنائه واحفاده ،

حتى ان الفقيه والمحدث والقاضي والمتكلم ليتقدم اليه ، ويتوعد باشد العقوبات ، ان لا يذكر شيئاً من فضائلهم ، حتى بلغ من تقيّة المحدّث انه اذا ذكر حديثاً عن علي كنّى عن ذكره فقال: « قال رجل من قريش ، وفعل رجل من قريش » ، ولا يذكر علياً ولا يتفوه باسمه [١] . فلما ولي عمر بن عبد العزيز كفّ عن شتمه ، فقال الناس : تركَ السنّة !

وكلما ظلم بنو امية ، واستبدوا ، واستأثروا ، وتقاتلوا على الملك ، كان ذلك خدمة منهم لاهل البيت وترويجاً لامرهم وعطفاً للقلوب عليهم . وكلما شددوا في الضغط على شيعتهم ومواليهم ، واعلنوا على منابرهم سب علي ، وكتمان فضائله ، وتحويلها الى مثالب ، انعكس الامر وانتهى « برد فعل » عليهم [٢] . ولم يكن موقف العباسيين اقل عنفاً ، الا ايام المأمون ، فقد اسرف خلفاؤهم في اضطهاد العلويين ، واغرقوا ثوراتهم في الدماء ، حتى تأسفوا على ايام بني امية وقال شاعرهم ابو العطاء السندي :

يَا لَيْتَ جَوْرَ بَنِي مَرْوَانَ دَامَ لَنا وَلَيْتَ عَدْلَ بَنِي ٱلعَبَّاس فِي النَّار !

---

١ الجاحظ : رسالة في الرد على العثمانية ص ١٣ .

٢ آل كاشف الغطاء : اصل الشيعة واصولها ، الطبعة الثانية ، ١٩٣٦ ، ص ٨٦ .

الامامة

تنظر السنّة الى الخليفة نظرها الى رجل يؤمن القيام بموجبات الدين وشعائره . يشرف على تطبيق الشرائع والدفاع عن حدود الخلافة ، وتجهيز الجيوش ، وجباية الضرائب ، والضرب على ايدي العصاة ، ومعاقبة اللصوص والاشرار ، وتوزيع اموال الجبايات ، والقيام بالصلاة ، فهو ممثل للقوى الشرعية والادارية والعسكرية في الدولة .

اما الشيعة فترى ان الاعتراف بالامام جزء من العقيدة ، فالاعتقاد به ضروري . ولا بد لكل زمان من امام يرجع اليه الناس في تفهم الاحكام . فهو وارث النبي في دعوته . يأمر ويعلّم باسم الله . واذا فرض ان زماناً خلا من امام ظاهر او غائب ، فان الحجة لا تتم لله على عباده . فالامام اذاً لا بد ان يكون موجوداً : اما ظاهراً يتصل بالناس مباشرة ، او غائباً يشرف على الشؤون العامة بواسطة علماء الدين . وهذا الامام لا يتعين الا بالنص . ومنصبه الهي كمنصب النبي ، الا انه دونه في الرتبة . وهو ناشر لما اودع اليه من الاحكام .

فمنذ خلق آدم ، ظهر شعاع الهي . انتقل في ذريته المختارة الى ان وصل الى جد النبي وعلي . وهناك انقسم الى جزئين: الاول دخل نفس عبدالله والد الرسول ، والثاني دخل نفس

اخيه ابي طالب والد الامام . ومنه انتقل الى سلالتـه ، اي الى امام كل عصر . والامام يعود يوماً . وفي انتظار عودته وانتهاء غيبته ، عـلى كل شيعي ان يقسم الايمان بالاخـلاص له . وهكذا ، ففي عام ١٩١٠م بدأ المجلس الايراني عمله بحضور الامام « الغائب» .

والشيعة عامة متفقة عـلى صفات الامام ، وعـلى الرجعة ، ولكنهم يختلفون في عدد الايمة ، وفي شخصية الاخير منهم . فالزيدية تتوقف عند الامام الخامس ، والاسماعيلية عند السابع ، والامامية عند الثاني عشر .

الايمة

الايمة — كما يعتقد الاماميون — هم اثنا عشر اماماً . نص النبي على اولهم في حياته ، ونص كل امام منهم على خلفـه الا الحسن والحسين ، فانه قـد نص عليهما ابوهما وجدهما بالامامة . وانحصرت الامامة في مذهبهم بعـلي واولاده من فاطمـة الزهراء . وآخرهم هو محمـد بن الحسن العسكري المعروف بالغائب والمهـدي والمنتظر . ولد سنة ٢٥٦ هـ ، وغاب غيبتين : الاولى الغيبة الصغرى في عام ٢٦٠ هـ وكانت تخرج خلالها التواقيع الى سفرائه الاربعـة الذين نصبهم واسطة بينه وبـين الناس ، وهم ابو عمرو عـثمان بن سعيد العمري ، وابنه ابو جعفر ابن عثمان بن سعيد المعروف بالخلاني ،

والحسين بن روح [١] ومحمد بن علي السمري ، وكانت عاصمتهم بغداد . والثانية الغيبة الكبرى في عام ٣٢٩ هـ ، وهي التي اعلن فيها انقطاعَ السفارة وخروجَ التواقيع ، وان المرجع الوحيد للناس بعد هذه الغيبة الكتاب الشريف ، وما يُروى عن ايمة اهل البيت من الاحاديث بطريق العلماء الربانيين الجامعين لشرائط الاجتهاد . وكان آخر كتاب ارسله قبل ان يغيب غيبته الثانية معنوناً باسم سفيره محمد بن علي السمري [١] .

صفات الامام وعلمه

الامام معصوم . والعصمة صفة لا تضيفها السنّة الا الى الانبياء .

وقد درجت جماعة المسلمين ، بعد ظهور المدارس الفقهية الاربع ،

---

١ هذا نصه نقلاً عن الجزء الثالث عشر من بحار الانوار للمجلسي : « يا محمد بن علي السمري ، عظم الله اجر اخوانك فيك ، فانك ميت ما بينك وبين ستة ايام . فاجمع امرك ، ولا توص الى احد يقوم مقامك بعد وفاتك . فقد وقعت الغيبة الثانية . فلا ظهور الا بعد اذن الله عز وجل ، بعد طول الامد ، وقسوة القلب ، وامتلاء الارض جوراً . ويأتي بعدي من شيعتي من يدّعي المشاهدة . الا فمن ادعى المشاهدة قبل خروج السفياني والصيحة فهو كاذب مفتر ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . » (راجع عن الامامة عبد الرزاق الحسني : تعريف الشيعة ص ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ .

Massé : L'Islam, p.p. 151, 153, 154.
Goldziher : Le dogme... p.p. 172-173.

على ان التقليد قام مقام الاجتهاد . اما الشيعة فتعلن قصور العقل الانساني ، فلا تسلم بالاجماع ، وتؤيد الاجتهاد ، لان المجتهدين هم ممثلو الامام الغائب . فهو يتكلم على السنتهم . ومن هنا نشأ تفوق المجتهدين على العلماء .

والامام يدرك معاني القرآن الخفية ، وذلك لان لهذه الآيات الظاهرة معاني باطنة لا يدركها سواه ، ورثها عن سلفه ، والسلف الاول اخذها مباشرة عن النبي . لذلك يحتفظ الامام بعلوم خاصة ، وكتب خفية لا يطلع عليها غيره . فقد قال الباقر « ان اسم الله الاعظم ثلاثة وسبعون حرفاً يعرف منها سليمان حرفاً واحداً ، تكلم به فأتي اليه بعرش مملكة وسيعة . ونحن عندنا منها اثنان وسبعون حرفاً ، وحرف عند الله استأثر به في عالم الغيب عنده [1] . »

وتذكر بعض الكتب الشيعية ان لدى الامام الجفر ، وهو وعاء من ادم فيه علم الانبياء والمرسلين وكل الاوصياء وعلوم العلماء . ولديه الجامعة ، وهي صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع النبي باملائه من فيه ، وخط علي بيمينه . فيها كل حلال وحرام ، وكل شيء يحتاج اليه الناس ، ومصحف فاطمة ،

---

١ ـ الوافي ج ٢ ، ص ١٧٢ .

وهو مثل القرآن ثلاث مرات ، ما فيه من قرآن السنّة حرف واحد . مكثت فاطمة بعد النبي خمسة وسبعين يوماً ينزل اليها جبريل يسليها ويعزيها ويحدثها ويخبرها عن ابيها ، وبما يكون بعدها في ذريتها . وكان علي يستمع ويكتب كل ما سمع . ويزعم بعضهم ان لدى الامام ايضاً صحيفة فيها اسماء شيعته الى يوم القيامة ، وصحيفة فيها اسماء اعدائه الى يوم الحساب [١] .

خمس الامام

تقول كتب الشيعة ان الخمس كان حقاً يجب دفعه الى الامام حين كان ظاهراً . وقد غاب غيبته الى يوم الوقت المعلوم ، بعد النصف الاول من القرن الثالث . اما زمنَ غيبة الامام فللشيعة في الخمس اقوال منها : انه يسقط الواجب ، لانه صدر من الايمة ، زمن وجودهم ، احلالُ الخمس للشيعة . وذهب ذاهب الى دفنه وكنزه ، لان الارض تُخرج كل كنوزها عند ظهور الامام ، او الى انفاقه على فقراء الشيعة ، او يدفع الى نائب الامام ، وهو حافظ الشريعة ، وسادن الملة ، والنائب زمن الغيبة ، فيصرفه على مهمات الدين ،

---

١ الوشيعة ص ٩٧ ــ ٩٨ . ينبغي لنا ان نأخذ هذه المعزوات اليهم بحذر ، فالوشيعة من كتب خصومهم . ولا يخفى على المطالع « الحيادي » ميل موسى جار الله مؤلف « كتاب الوشيعة في نقد عقائد الشيعة » الى تتبع النقائص واهمال الفضائل .

ومساعده الضعفاء والمساكين .

التقية والكتمان

كان للانكسارات المتتالية التي اصابت جماعاتهم في كل ثورة حاولوها ، ولاضطهاد الامويين ثم العباسيين لهم ، اثرٌ كبير في تستُّرهم واعتمادهم على الكتمان والتقيَّة .

واستفادت الدعوة العباسية كثيراً من الدعوات الشيعية المكتومة ، فحولتها الى مصلحتها الخاصة ، مدّعيةً ان العباسيين هم الورثة الشرعيون لمحمد بن الحنفية . ورغم ذلك فقد كان اضطهاد المتوكل للشيعة عنيفاً ، فسوّى قبر الحسين . ومنذ ذلك الحين اصبح زعماء الشيعة مضطهدين منبوذين لا يجرؤون على الظهور بين الناس خوفاً من بطش الحكام واضطهاد الخلفاء [١] ، فتظاهروا بما لا يغضب السلطة . واصبحت هذه الحالة شعاراً لهم . والتقية عندهم تارة واجبة عندما يتعرض الانسان لخطر لا فائدة عامة منه ، وتارة مباحة اذا كان في التظاهر بها تقوية للحق ومساعدة للعدل وقضاء على الباطل [٢] . وكان الباقر يقول « من اظهر الحق وترك التقية في دولة الباطل ، يكون لم يرض بقضاء الله ،

---

١ ميداني ، بولاق ج ١ ، ص ١٧٩ .

٢ عبد الرزاق الحسني : تعريف الشيعة ص ٥٢ — ٥٤ .

وخالف امر الله ، وضيّع مصلحة الله التي اختارها الله لعباده . فهو مارق من الدين [١] . »

ويقول الصادق « التقية من دين الله . امر الله عباده بها في كل ملّة . لانه شرع التقية في الاقوال والافعال ، وفي السكوت عن الحقّ ، حفظاً للنفس والمال وابقاء للدين . ولولا التقية لبطل دين الله وانقرض اهله . »

كان من نتائج هذا الكتمان والتقية ان نشأت جماعات سرية تعمل في الخفاء للوصول الى غايتها من اسناد الحكم الى من يمثل النظرية الشيعية . وكان من نتائجها ايضاً ان كثيراً من الممالك الاسلامية الصغرى قد اندثرت وقامت مكانها ممالك اخرى تدين بالتشيع . وتألفت مدارس خاصة لتعليم الدعاة الاساليب المجدية في نشر المبادىء والتخفي ، نشير اليها في مكان آخر .

المتعة

جاء عند المؤرخ اميان مرسلّان ان الزواج لمدة معينة كان معروفاً عند العرب في القرن الرابع بعد المسيح . وكانت الزوجة آنذاك تهدي لزوجها رمحاً وخيمة [٢]

---

١ اصول الكافي ج ٢ ،ص ٣٦٤ .

٢ كان للمرأة في الجاهلية حق الطلاق اذا اشترطته في عقد الزواج . ويكون طلاقها بتحويل باب الخيمة من جهة الى اخرى تقابلها . وهكذا طلقت ماوية زوجها حاتماً الطائي .

وبوسعها ان تغادره بعد مضي الوقت المتفق عليه عندما تشاء. لذلك يمكن القول ان الجاهلي عرف زواج المتعة ، ولا يزال هذا النوع من التعاقد متبعاً الى الآن في الاريتريا .

ولعل المتعة وقعت من بعض الناس في صدر الاسلام . ولم تكن حكماً شرعياً باذن من الشارع . غير ان كتب الشيعة تقول ان في القرآن ذكراً للمتعة ولاسيما في الآية المدنية القائلة « فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ [١] . » وتنكر السنّة على الشيعة فهمها هذه الآية كذلك وتحملها على النكاح الرسمي. اما الاحاديث فهي متناقضة في ما يتعلق بها . بعضها يثبت شيوعها ايام الرسول ، وان النبي نفسه قد تمتع ، وبعضها تنكر كل ذلك ، وتنسب احاديث المتعة الى ايمة الشيعة وحدهم . وهناك احاديث تقول ان النبي منع المتعة في حياته . وغيرها يثبت ان الخليفة عمر بن الخطاب نهى عنها في اوائل عهده وهدد المحلين بالجلد . وقد خالفت الشيعة تحريم عمر بن الخطاب ، حتى قال احدهم : « من لم يستحل متعتنا ، ولم يقل برجعتنا فليس منا . » ويجعلها بعض علمائهم شارة اهل البيت وشعار الايمة .

---

١ النساء ، ٢٤ .

ويتميز زواج المتعة عن الزواج الرسمي بامور منها : انه ليس فيه اشهاد ولا اعلان . فمن تزوج متعة بغير شهود فلا بأس به . ويعين فيها الاجل ، ويكون اما اياماً او شهوراً او سنين معلومة . ويمكن التمتع باي عدد من النساء ، لانهن بمنزلة الاماء[١].

الشيعة والمعتزلة

يكاد رأي الشيعة في المبادىء اللاهوتية التي عرضت لها الفرق الاسلامية يشبه في معظمه رأي المعتزلة . وقد اعتمد علماء الشيعة نظريات المعتزلة في جدلهم اللاهوتي ، واطلقوا احياناً على انفسهم اسم « العدلية » وهو اسم يطلق على جماعة المعتزلة . ويظهر الاتفاق ايضاً في قول الفريقين ان علياً والائمة هم اول من انشأ

---

١ سئل الصادق عن المتعة أهي من الاربع ؟ فقال : لا . ولا من السبعين ، بحل لك من المتعة ما شئت . وقال : تزوج منهن الفاً ، فانهن من المستأجرات . (راجع : Ency. de l'Islam : Mut'a. . توفيق الفكيكي : المتعة ، النجف ، ١٩٣٧) . يعرض المؤلف في بحثه هذا الى تحديد المتعة لغة واصطلاحاً ، والى موقف القرآن منها ، والى التباس الروايات عن ابن عباس ، واقوال ابن رشد وابن حزم عنها ، وخلاصة مذهب الجمهور في التحريم ، وادلة ائمة مذهب المجوزين للمتعة ، واتفاق الطرفين على وقوع التحريم في عهد عمر بن الخطاب . والكتاب واضح العرض ، جلي الفكرة .

مذهب الاعتزال .

لا يمكن اصدار حكم مطلق في الروابط الفكرية بين الجماعتين ، وذلك لانقسام الشيعة الى فرق ثنوية يختلف بعضها عن بعض في كثير من التعاليم اللاهوتية . ولكن الامر الذي يمكن اثباته بشيء من التأكيد هو ان فرقة « الصالحة » الشيعية ترى في الاصول رأي المعتزلة « حذو القذة بالقذة ، وتعظم ائمة الاعتزال اكثر من تعظيمها ائمة اهل البيت [١] ». اما الامامية فهي مختلفة في الاصول ، بعضها معتزلة وبعضها مشبهة [٢]. وهناك من اتباعها من هم متمسكون بالعدلية في الاصول وبالمشبهة في الصفات [٣] . والاختلاف الرئيسي الذي يقصي المعتزلة عن الشيعة هو الاعتقاد بالامام ، وبما يتفرد به من الصفات .

ولعل اقرب الفرق الشيعية الى المعتزلة هي الزيدية . وقد تتلمذ زيد بن علي بن الحسين بن علي إمامها ، على واصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة ، مع اعتقاد واصل بأن جده علي بن ابي طالب في حروبه التي جرت بينه وبين اصحاب الجمل واصحاب الشام ما كان على يقين من الصواب « وان احد الفريقين منهما

---

١ الشهرستاني ج ٢ ، ص ٢ .
٢ الشهرستاني ج ٢ ، ص ٥ .
٣ الشهرستاني ج ٢ ، ص ١١ .

كان على خطأ» . ومع ذلك اقتبس زيد منه الاعتزال[١] .

المعتزلة

اسمها

اجمع مؤرخو الفرق على ان اسم المعتزلة اطلق على هذه الجماعة لانها اعتزلت الحسن البصري . ويروون قصة حدثت لواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد تلميذي الحسن مع استاذهما ، اشرنا اليها في هامش احدى الصفحات ، ملخصها انهما خالفا الحسن في مصير مرتكب الكبائر ، وانتحيا عند سارية من سواري المسجد الجامع في البصرة فقال الناس انهما اعتزلا حلقة الحسن وقول الامة[٢] . وهي رواية شاعت بين المؤرخين القدماء والمحدثين حتى باتوا لا يشكون في صحتها وصحة استخراج اسم الفرقة منها . والقاموس المحيط يشير ايضاً اشارة لطيفة الى منشأ اللفظة ، فيعرض لما يقال عن الحادثة ، غير انه يقدم على اشارته هذه تحديداً آخر فيقول : المعتزلة من القدرية ، زعموا انهم اعتزلوا فئتي الضلالة عندهم : اهل السنّة

---

١ الشهرستاني ج ١ ، ص ١٦٠ .

٢ راجع الفرق بين الفرق البغدادي ص ٩٨ ، طبعة مصر .

والخوارج [١] . والواقع ان « اعتزل » وردت كثيراً في كلام المؤرخين العرب بمعنى الحياد. وقد وقعنا عليها غالباً عند الاشارة الى الجماعة الذين « اعتزلوا » الفريقين في الخصومة الطارئة بعد خلافة علي . والاغرب ان لفظة « معتزلة » نفسها اطلقت على هذه الجماعة. فعند اجتماع ابي موسى الاشعري بعمرو بن العاص في دومة الجندل لاصدار حكمهما في الخلاف ، دخل عليهما المغيرة بن شعبة وقال يخاطب عمراً : يا أبا عبد الله ، اخبرني عما اسألك عنه : كيف ترانا معشر المعتزلة ؟ فانّا قد شككنا في الامر الذي تبين لكم من هذا القتال ، ورأينا ان نستأني ونتثبت حتى تجتمع الامة . قال : اراكم معشر المعتزلة خاف الابرار ، وأمام الفجار . فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك [٢] .

وفي مكان آخر يقول الطبري : ان ابا موسى اقترح ان يلي الامر عبد الله بن عمر ، وكان ابن عمر فيمن اعتزل . وترددت في كثير من الصفحات وعلى ألسنة معظم المؤرخين بمعنى الابتعاد عن الخلاف ، اي الحياد [٣] .

---

١ راجع قاموس الفيروزابادي : مادة « عزل » .

٢ تاريخ الطبري ج ٤ ، ص ٤١ .

٣ قال النوبختي في كتاب : فرق الشيعة ص ٥ ، في كلامه عن الحياديين في الخصومة التي طرأت على المسلمين : « . . . وفرقة منهم اعتزلت

كانت مشكلة مصير مرتكب الكبائر من اهم المشاكل الفكرية والسياسية آنذاك . بها يحدد موقف المسلمين . فاما ان يكفر بعضهم بعضاً ، واما ان يستكينوا الى الامن ! فكان موقف المعتزلة اول الامر حيادياً ، ثم تحول فاصبح موقفاً توفيقياً بين الخوارج والسنّة .

صفات المعتزلين

اتصف زعماء الاعتزال ومؤسسوه بالتقوى والورع والزهد بالدنيا ، حتى جاروا في هذا ، الحسن البصري ، واقتدوا به ، وساروا على طريقته في الحياة لبعده عن زخارفها ، وانصرافه بجميع حواسه الى ما فيه خير نفسه وصلاح دينه . كانوا من اقرب الناس اليه ، بل ربما كانوا اكثر منهُ انصرافاً عن مشاغل الناس ، فالتزموا خطة الحياد

مع سعد بن مالك . . . وعبد الله بن عمر بن الخطاب . . . واسامة بن زيد . . . فان هؤلاء اعتزلوا عن علي عليه السلام ، وامتنعوا من محاربته ، والمحاربة معه ، بعد دخولهم في بيعته والرضاء به . فسموا المعتزلة ، وصاروا اسلاف المعتزلة الى آخر الابد . »

وهناك رأي يرقى بهم الى « الحين الذي تخلى فيه الحسن بن علي لمعاوية ، فاعتزلت جماعة الحسن ومعاوية جميعاً ، وكانوا من اصحاب علي ، ولزموا منازلهم ومساجدهم جاهدين على التقوى ، منصرفين الى العلم ، فسموا لذلك « معتزلة » . عن كتاب رد اهل الاهواء والبدع ، لابي الحسين الطرائفي . (راجع تبيين كذب المفتري لابن عساكر الدمشقي ص ١٠ ، طبعة مصر) .

او الاعتزال في المشاكل الطارئة على المؤمنين .

انتهى بهم الامر قبيل عهد الجاحظ الى ان يتصفوا بميزات خارجية ونفسية معينة ، وان يؤلفوا ، من حيث المظهر الذي يطلعون به على الناس ، جماعة لها صفات معينة اورد بعضها صفوان الانصاري في رائيته ، يصفهم فيها بقوة العزيمة ، وتقحم الاخطار ، وشدة العارضة في منازلة الخصوم ، والغوص على العلم ، وبلاغة الخطابة ، والدفاع عن الدين ، والقيام بوجه الحرورين — الخوارج — والرافضة والمرجئة ، ودعم دين الله ، وتطويل الصلاة . اما من حيث الظاهر فهم يحفون شواربهم ، ويخففون لحاهم ، وفي واصل يقول :

فَا مَسَّ ديناراً ولا صَرَّ درْهماً ولاعَرَفَ الثَّوْبَ الذي هُوَ قاطِعُهْ [١]

لا نذكر من رائيته الا القليل منها . يقول عنهم :

. . . وأَوْتادُ أَرْضِ اللهِ في كُلِّ بلدَةٍ ومَوضِعُ فُتْيَاها وعلْمُ التَّشاجُر [٢]

وما كانَ سَحْبانٌ يشُقُّ غبَارَهُمْ ولا الشِّدْقُ من حَيَّي هلالِ بنِ عامِرِ [٣]

---

١ الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ، ص ٣٩ ، طبعة السندوبي ١٩٢٦ .

٢ اوتاد : زعماء . الفتيا والفتوى بالفتح والضم : ما اجاب به العالم او الفقيه اذا طرحت عليه المسائل المتعلقة بالشريعة ، او باحدى المسائل العويصة . التشاجر : الاشتباك في النزاع ، ويقصد به الجدل والخصومات الكلامية .

٣ سحبان : رجل من باهلة يضرب به المثل في الفصاحة . فيقال :

تَلَقَّبَ بِالغَزَّالِ واحِدُ عَصْرِهِ ... فَمَنْ لِلْيَتامى وَالقَبِيلِ الْمَكاثِرِ [١]
وَمَنْ لِحَرورِيٍّ وَآخَرَ رافِضٍ ... وَآخَرَ مرجِيٍّ وَآخَرَ حائِرِ [٢]
وَأَمرٍ بِمَعْروفٍ وَإِنكارِ مُنْكَرٍ ... وَتَحْصِينِ دِينِ اللهِ مِن كُلِّ كافِرِ [٣]
يُصِيبُونَ فَصْلَ القَوْلِ فِي كُلِّ مَنْطِقٍ ... كَما طُبِّقَتْ فِي العَظْمِ مِدْيَةُ جازِرِ [٤]
تَراهُمْ كَأَنَّ الطَّيْرَ فَوْقَ رُؤُوسِهِم ... عَلَى عِمَّةٍ مَعْروفَةٍ فِي الْمَعاشِرِ [٥]

« افصح من سحبان وائل . » ما شقّ غباره : ما ادركه . الشدق : ج . اشدق ، وهو الخطيب . حيي : مثنى حي .

١ الغزال : واصل بن عطاء زعيم المعتزلة ومؤسسها ، ولد سنة ٨٠ هـ . واحد عصره : المنقطع النظير والقرين . القبيل : الجماعة من اقوام شتى يكونون من الثلاثة فصاعداً ، وقد يكونون من اب واحد ، وربما يشير الشاعر هنا الى الاسر الكثيرة العدد المحتاجة الى المساعدة والمعونة .

٢ حروري : وردت في البيان والتبيين ، بدون واو ، ولا يستقيم وزن البيت (الطويل) ، ولا معنى للفظة الا باثباتها ، والحروري : نسبة الى حروراء ، وهي المحلة التي اطلق اسمها على جماعة الخوارج الذين التجأوا اليها . رافض : واحد من معتدلي الشيعة . مرجي من فرقة المرجئة وهي التي كانت تقول بترك الجدل والتفكير ، وارجاء الحكم في القضايا الطارئة على الامة الى الله يحكم فيها بما يشاء . الحائر : الشخص الذي لا يستقر على امر . ولعل حيرته من تعدد المختلفين والمتأولين .

٣ يشير الى الاعمال الاخرى التي يقوم بها واصل بن عطاء : يأمر بالمعروف وينكر المنكر ، ويرد هجمات الكافرين عن الدين .

٤ يعود الى جماعة المعتزلة ، فيصفهم بالكلام الموافق الذي يفصل في القضايا المعروضة كما تطبق في العظم سكين الذابح .

٥ كأن الطير فوق رؤوسهم : يشير الى هدوئهم وسكونهم . عمة معروفة

...

وسيماهم معروفة في وجوههم وفي المشي حجاجاً وفوق الاباعر [1]
وفي ركعة تأتي على الليل كله وظاهر قول في مثال الضمائر [2]
وفي قصر هداب وإخفاء شارب وكور على شيب يضيء لناظر [3]
وعنفقة مصلومة ولنعله قبالان في ردن رحيب الخواطر [4]
فتلك علامات تحيط بوصفهم وليس جهول القوم في جرم خابر [5]

مذهبهم

الامر الذي يجب تقريره هو ان المعتزلة كانوا يؤلفون ، قبل ان يطلق عليهم هذا الاسم ، جماعة دينية متطرفة في عقيدتها ، راسخة في ايمانها ، وانهم لم يؤلفوا

في المعاشر : يشير بها الى رئيس الجماعة الذين يجتمعون حوله .

١ يعرفون من وجوههم ، ويعرفون عندما يسيرون الى الحج مشياً على الاقدام او ركوباً على الجمال .

٢ ويعرفون ايضاً من طول ركوعهم الذي يستغرق احياناً الليل باجمعه ، ومن قولهم الصريح ، فلا يضمرون غير ما يظهرون .

٣ هداب : شعر اشفار العين . أحفى شاربه : بالغ في الاخذ منه . الكور : لف العمامة وادارتها . يعرفون من تقصيرهم لشعر اهداب العينين ، والاخذ من شعر الشارب ، ولف العمامة فوق بياض اللمة المضيء .

٤ العنفقة : شعيرات بين الشفة السفلى والذقن ، قيل لها ذلك لخفتها وقلتها . صلم : قطع . قبال النعل : الزمام بين الاصبع الوسطى والتي تليها . الردن : اصل الكم . رحيب الخواطر : تسهل فيه الحركة لاتساعه .

٥ يشير فيه الى انه انما يصفهم بهذه الصفات عن علم بهم واختبار لشأنهم ، فهو اذاً لا يخطىء في ذكر علاماتهم .

حزباً من الاحزاب ، او جمعية من الجمعيات . وقد يتعاصر بعضهم ويعيشون في اقطار متباعدة ، دون ان يسعوا الى الاجتماع والاتفاق والتعاون . وكانت الرابطة القوية التي تجمع بينهم رابطة روحية . وَحَّدَتْ بين جماعتهم تلك النزعة العقلية التي استيقظت في نفوس بعض المؤمنين ، ولاسيما الطبقة الراقية المثقفة ، للوقوف في وجه الاعتقاد العامي ، الذي حاول ان يرى في السماء ما يراه على الارض من لذات جسدية واجسام عرضية ، وان يستسلم الى ما فيه غذاء للخيال من العجائب والمعجزات . كان المعتزلة يشعرون في انفسهم انهم يمثلون — في ذلك البحر الزاخر بالعقائد المتضاربة التي حاولت ان تضع من سمو المعاني الالهية واللاهوتية — الفئة المختارة المنتخبة التي ثقفت النظريات الفلسفية ، واستعانت بها في الحفاظ على مكانة العقيدة من السمو والرفعة .

كانت الطبقة الاولى منهم تكاد لا تختلف في شيء عن الجماعة ، وانما تتفرد ببعض اقوال مقتضبة في مسائل حاول العامة ان يخرجوها على ما تشتهي نفوسهم ، او يمثله خيالهم . لم يعنفوا في الجدل ، ولم يضطهدوا خصومهم ، ولم يضعوا المؤلفات في تثبيت آرائهم التي كانوا ينظرون اليها ، في اول الامر ، كأمور جزئية بالنسبة الى العقيدة الاسلامية العامة .

ثم هم لم يغالوا في استخدام مقدمات القياس ونتائجه ، ولم يؤلفوا البراهين المنطقية ، وانما اكتفوا بابداء نظريتهم الخاصة بشكل يميل الى الاسلوب الادبي ، اكثر مما يميل الى اسلوب الفلاسفة .

غير ان هذه النظرية صدمت الخيال العامي صدمة عنيفة ، وقد راق لهذا الخيال ان يسرف في تمدده وتشعبه ، وحسن لديه ان ينظر الى خالقه ، كما ينظر الى انسان كامل ، يضم في برديه جوهر النفس ، وعرض المادة . وطاب له ان يكون الله على صورة صنيعته الانسان ، فيبدو للعيان ، ويسمع صوته ، ويبصر شكله . ثم ان هذا الخيال العامي أَلِف رؤية القويِّ يستبد بالضعيف ، ورؤية المولى يتصرف بمولاه ، كما يتصرف بملكه ومقتناه . وتعوّد ان يحدد الحرية في تصرف المالك المطلق بما يملكه ، فحاول ان يجعل من الخالق ، المالكَ الاكبر الذي لا حد لقوته ولا نهاية لسلطته ، فهو اذاً حر في تقرير مصير الانسان .

كان رد الفعل لدى الجماعة عنيفاً ، يؤازرها في موقفها كبار المحدثين ، وما فطر عليه الانسان العادي من الاستسلام لوحي خياله ، وآياتٌ قرآنية تكاد تكون واضحة الدلالة ، واحاديث نبوية متصلة الاسناد ، صادقة الرواية .

فحملوا على المجددين بالاساليب المعروفة في تلك الايام من تأثيم في الخُلق ، وطعن في الدين ، وانتقاص في الايمان ، واختراع في الاحاديث ، وتخريج في الآيات ، وقاوموهم على ثقة منهم أن هؤلاء المتكلمين في ذات الخالق وصفاته وكلامه وعقابه وثوابه ، ليسوا الا نفراً يحاولون في جدلهم فتنتهم عن الخالق الذي به يدينون ، وتحويلهم عن الايمان الذي به يؤمنون . فرددوا الحديث المنحول المأثور : « المعتزلة مجوس الامة » .

كان لا بد لطلائع المعتزلة ان تتمسك بما قالته ، وان تحاول بكل ما اوتيت من قوة العارضة ، وحجة الاقناع ، واتساع المطالعة ان تثبت بالبرهان والقياس ان ما قالته هو الصواب ، وان العقل والمنطق يمليان على الانسان المفكر ما قالوا به ، وان نظرياتهم في تلك المسائل الخاصة ، هي اقرب الى الحقيقة المطلقة من النظريات العامة المغرقة في تجسيد الخالق .

وهكذا تكتلت المعتزلة ، وتحولت الى العلم لاتخاذه سلاحاً في مهمتها الجديدة ، فنشأت النظريات المفصلة المبينة ، ووضعت المؤلفات المطولة ، وتبارى شيوخها في الاتيان بحجج جديدة ، وبينات حديثة . وغالوا في استخراج النتائج من المقدمات ، والفوا جماعة لها رأي في كل امر ، في الدين والدنيا ، واللاهوت والسياسة ، ثم تشعبوا الى فرق كثر عددها ، وشاع خبرها .

فزادت على الاسس الاولى ما تبين لها انه الصواب .

اما المبادىء العامة التي كاد يشترك فيها الجميع ، منذ اول عهد الاعتزال الى الوقت الحاضر ، ان جاز لنا ان نسمي الذين يشار كونهم في آرائهم من المعاصرين اعتزاليين ، فانها تلخص فيما يلي:

صفات الخالق

الخالق قديم ، في كل مكان وزمان ، منزه عن جميع الصفات الجسمانية ، واحد ، وهو عالم قادر حي بذاته . وهذه الصفات قديمة قائمة به ، وليست مضافة اليه ، بل تؤلف وذاته كائناً واحداً كاملاً ، لا يتجزأ ولا يتعدد .

وان نظرة الى خلاصة رأيهم في صفات الخالق تبين لنا امرين على كثير من الاهمية : الاول ان الخالق جوهر منزه عن الجسمانية ، والثاني انه عاقل يدبر شؤون العباد بحكمة .

اما السبب في ما ذهبت اليه المعتزلة من هذا القول ، فهو انهم حاولوا الرد على جماعتين مختلفتين جد الاختلاف في الرأي والعقيدة ، رداً لا يقبل الشك : الجماعة الاولى هم العامة المجسمة الذين المعنا الى مذهبهم في مكان آخر[1] . والجماعة الثانية

---

١ نظرية التوحيد تجعل من الله كائناً كاملا يفوق في الكمال الكائن الذي تخيله العامة ، وذلك لم يرق للجماعة ، فان احدهم ، اول عهد الاختلاف ، كان يقول :

« ان كلام هؤلاء — يريد المعتزلة — يعني انه لا يوجد خالق في

هم زعماء التفلسف من المشائين القائلين ان الخالق هو محرك لا يعي ، يقتصر عمله على كونه السبب الآلي للحركة الكونية دون ان يعقل ، او يدرك او يبصر ما يحدث في العوالم التي يتألف منها الكون[١] .

السماء . »

وكان آخرون يقولون :

« اذا صح ان العلم والقوة والعقل هي ذات الخالق ، فيصح لنا ان نوجه دعاءنا الى العلم والقوة والعقل . »

١ فصلت المعتزلة صفات الخالق تفصيلاً مسهباً في مؤلفات عديدة ، لم يصل منها الا اجزاء لطيفة مثل كتاب الانتصار لابن الخياط ومقاطع مجزومة . اشار الاشعري في مقالات الاسلاميين الى بعض تلك الصفات ، فرأى ان المعتزلة قد اجمعت على ان الله واحد وليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ، وليس بجسم ، ولا شبح ، ولا جثة ، ولا صورة ، ولا كم ، ولا دم ، ولا شخص ، ولا جوهر ، ولا عرض ، ولا بذي لون ، ولا طعم ولا رائحة ولا مجسة ، ولا بذي حرارة ولا برودة ، ولا رطوبة ، ولا يبوسة ، ولا طول ، ولا عرض ، ولا عمق ، ولا اجتماع ، ولا افتراق ، ولا يتحرك ، ولا يسكن ، ولا يتبعض ، وليس بذي ابعاض واجزاء ، وجوارح واعضاء ، وليس بذي جهات ، ولا بذي يمين وشمال ، وامام ، وخلف وفوق وتحت . ولا يحيط به مكان ، ولا يجري عليه زمان ، ولا تجوز عليه المماسة ، ولا العزلة ، ولا الحلول في الاماكن ، ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدثهم ، ولا يوصف بانه متناه ، ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب في الجهات ، وليس بمحدود ، ولا والد ، ولا مولود ، ولا تحيط

نفي رؤية الله بالابصار

يكاد يكون هذا المبدأ متمماً للسابق . قرروا فيه انه لا يجوز رؤية الله بالابصار في دار القرار ، ونفوا التشبيه عنه من كل وجه : جهة ، ومكاناً ، وصورة ، وجسماً ، وتحيزاً ، وانتقالاً ، وزوالاً ، وتغيراً ، وتأثراً ، واوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها - فليس من الممكن فهم الالفاظ الواردة في الكتاب حسب مدلولها اللفظي . فالسميع والبصير والشفيق والجالس والواقف

به الاقدار ، ولا تحجبه الاستار ، ولا تدركه الحواس ، ولا يقاس بالناس ، ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه ، ولا تجري عليه الآفات ، ولا تحل به العاهات ، وكل ما خطر بالبال ، وتصور بالوهم ، فغير مشبه له ، ولم يزل اولا سابقاً ، متقدماً للمحدثات ، موجوداً قبل المخلوقات ، ولم يزل عالماً قادراً ، راجياً ، ولا يزال كذلك لا تراه العيون ، ولا تدركه الابصار ، ولا تحيط به الاوهام ، ولا يسمع بالاسماع ، شيء لا كالاشياء ، عالم قادر حي ، لا كالعلماء القادرين الاحياء ، وانه القديم وحده ، ولا قديم غيره ، ولا اله سواه ، ولا شريك له في ملكه ، ولا وزير له في سلطانه ، ولا معين على انشاء ما انشأ ، وخلق ما خلق ، لم يخلق الخلق على مثال سابق ، وليس خلق شيء بأهون عليه من خلق شيء آخر ، ولا باصعب عليه منه ، ولا يجوز عليه اجترار المنافع ، ولا تلحقه المضار ، ولا يناله السرور واللذات ، ولا يصل اليه الاذى والآلام ، ليس بذي غاية فيتناهى ، ولا يجوز عليه الفناء ولا يلحقه العجز والنقص ، تقدس عن ملامسة النساء ، وعن اتخاذ الصاحبة والابناء . (مقالات الاسلاميين ج ١ ، ص ١٥٥ — ١٥٦) .

والرجلان واليدان والاذنان ، كل هذه الالفاظ يجب تخريجها واعتبارها اداة للتعبير عن امور عقلية لا علاقة لها بالمادة .

ومن الثابت ان المعتزلة الحت في توضيح هذه النقاط بعد ما رأته من مغالاة الجماعة في النظر الى الخالق كما تنظر الى الانسان العادي[١].

وكان السلف والحنابلة اشد المسلمين تمسكاً بهذه النظرية

---

١ يذكر المستشرق كولدزيهر كمثال على تلك النزعة المجسمة المغالية حادثاً جرى بعد نشأة هذه النظرية لمحمد بن سعدون المشهور بابي عامر القرشي (وهو عالم ولد في ميورقة من اعمال الاندلس وتوفي ببغداد حوالى عام ٥٢٤/١١٣٠ م) وذلك انه كان يذهب في مغالاته الى القول ان الزنادقة — يعني المعتزلة — يحتجون في نفي الجسمانية بما ورد في الآية : « ليس كمثله شيء » ، وهذا يعني ان لا مثيل له في الالوهية ، ولكنه في شكله لا يختلف عني وعنك ، وهو تأويل يشبه تأويل الآية التي يخاطب بها الخالق ازواج النبي : « يا نساء النبيّ لستن كأحد من النساء » (سورة الاحزاب ، ٣٢) فان النساء يختلفن عنهن في المقام والرفعة ، وان ساوينهن في الشكل والمظهر . وقريب من هذا ما جرى للشيخ الحنبلي تقي الدين بن تيمية (٧٢٨/١٣٢٨ م) وذلك انه بينما كان يعظ الناس ورد في خطبته كلام عن « نزول الخالق » فنزل الشيخ بعض درجات المنبر وهو يقول : كنزولي هذا .

Goldziher : Le dogme et la loi de l'Islam,p. 87.

ولكن ما عزاه كولدزيهر الى ابن تيمية محل نظر . فان نسبته اليه لم تعرف الا عن ابن بطوطة في الرحلة ، وقد تلقف الخبر من افواه العامة . والثابت تاريخياً نسبة الحادث الى ابن تومرت امام الموحدين في المغرب .

الشاذة ، غير ان هؤلاء لم يكونوا يسمحون للمؤمن ان يتأول « الكيفية » ، وانما يطلبون منه التسليم دون التفكير والتأمل لان الكيفية تتجاوز نطاق الفكر الانساني [١] .

وكثيرون منهم كانوا يقولون ان الخالق هو لحم ودم ، وله اعضاء كجميع الناس ، غير ان هذه الاعضاء لا تشبه تحديداً اعضاء الانسان حسب قول الكتاب « .. لَيسَ كَمِثلِهِ شَيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِير [٢] . » ويعتبرون القائل بان الخالق هو روح صرف كافر مارق من الدين .

خلق القرآن

مسألة كلام الله من المسائل الهامة التي دار حولها الجدل ، واحتدم الخصام في سبيلها ، فاتفقت المعتزلة على ان كلامه — والاضافة لادنى ملابسة — محدث مخلوق ، مؤلف من حرف وصوت .

فما معنى ان للخالق صفة الكلام ؟ وان هذه الصفة اتخذت

---

١ قيل للامام انس بن مالك : « الرحمن على العرش استوى » ، كيف استوى ؟ فاطرق مالك وعلاه الرحضاء — اي العرق — وانتظر القوم ما يجيء منه .

فرفع راسه اليه وقال :

« الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، واحسبك رجل سواء . » وامر به فاخرج .

٢ الشورى ، ١١ .

لها شكلاً حسياً في الكتاب ؟

تقول السنّة ان الكلام صفة قديمة للخالق ، لم يكن لها بدء ، وليس لها نهاية ، كما ان الصفات الاخرى كالقوة والسمع والبصر والعلم هي ازلية ، لذلك يجب ان نعتبر القرآن — المظهر الحسي لتلك الصفة — قديماً ، وليس مخلوقاً . هذه هي النظرية السنية التي لا تزال قائمة الى الوقت الحاضر

فكان لا بد للمعتزلة ان يروا ذلك نقصاً في جنب وحدانية الخالق المطلقة ، لان تجسيم الكلام بشكل حسي ، والتسليم بوجود كائن قديم ، يشارك الخالق في القدم ، مما يضع من سمو الله وجلاله . وتحولت المسألة العامة النظرية المتعلقة بصفات الخالق الى نقطة معينة محسوسة ، يفهمها العامة كما تدركها جماعة الائمة .

وانتقلت الخصومة اللاهوتية الى سؤال بسيط في مظهره ،

---

١ نظر بعض العلماء المسلمين الى القرآن كما نظر افلوطين والمسيحيون الى العقل وكلمة الله . فالقرآن هو كلمة الله . لذلك يجب ان يكون قديماً كالخالق ذاته . ظهرت هذه النظرية في اواخر العهد الاموي ، وعمت العالم الاسلامي باجمعه ، وتمسك بها الخلفاء اول الامر . وجاهر جعد بن درهم مؤدب مروان الثاني الاموي بعكس هذا القول ، فامر الخليفة هشام بقتله .

وظهر ايام الخليفة هرون الرشيد من قال بقول جعد ، فطلبه الشرط فتوارى عن الانظار مدة عشرين سنة الى ان توفي الخليفة .

عظيم الاثر والنتائج في معناه ، وهو : «القرآن مخلوق ، ام غير مخلوق ؟ »

تلخص نظرية الاعتزال بان الرسول لا يسمع صوت الخالق ذاته في ساعات الوحي ، وانما يسمع صوتاً مخلوقاً ؛ لان الله عندما يود الاتصال بالرسول — اي بحاسته السماعية — يخلق لذلك واسطة مادية هي الكلام . والكلام هو ما يسمعه الرسول ، وهو مخلوق . وهكذا اخذوا ينادون بخلق القرآن .

ولم تثر نظرية فلسفية ما اثارته هذه من اضطراب في الافكار وثورة في العقيدة . فقد انضم اليها الخليفة المأمون وناصرها مناصرة شديدة ، وضيق على خصومها [١] . وسار الخليفة المعتصم

---

١ كتب المأمون الى عامله في بغداد اسحق بن ابراهيم ان يمتحن القضاة والشهود وجميع اهل العلم بالقرآن . فمن اقر انه محدث خلى سبيله ، ومن ابى يعلمه به ليرى به رأيه . فجمع اولي العلم الذين كانوا ببغداد ومنهم قاضي القضاة بشر بن الوليد الكندي ، ومقاتل ، واحمد بن حنبل ، وقتيبة ، وعلي بن الجعد ، وغيرهم . وقرأ عليهم كتاب المأمون . ثم قال لبشر بن الوليد : ما تقول في القرآن ؟ فقال بشر : القرآن كلام الله . قال : لم اسألك هذا ، امخلوق هو ؟ قال : الله خالق كل شيء . قال : والقرآن شيء . قال : نعم . قال : مخلوق هو ؟ قال : ما احسن غير ما قلته لك . فقال اسحق للكاتب : اكتب ما قال . ثم سأل غيره ، فاجابوا قريباً مما اجاب به بشر . ثم قال لاحمد بن حنبل : ما تقول في القرآن ؟ قال : كلام الله . قال : امخلوق هو ؟ قال : كلام الله ، ما ازيد عليها . ثم

على خطته ، ونهج نهجه ، ولاقي مناصرو قدم القرآن الاضطهاد والشدائد والعذاب والتشريد ، ولم تطلق هذه النظرية الا عهد المتوكل

القول بالقدر

من الثابت ان هذه اولى النقاط التي فصلتها المعتزلة فاتفقوا على ان الانسان

قال له : ما معنى قوله « سميع بصير »؟ قال احمد : هو كما وصف نفسه . قال: فما معناه ؟ قال : لا ادري ، هو كما وصف نفسه . ثم سأل قتيبة وعبيد الله بن محمد وعبد المنعم بن ادريس ابن بنت وهب بن منبه ، وجماعة معهم ، فاجابوا ان القرآن مجعول ، لقوله تعالى : « انّا جعلناه قرآناً عربياً » . والقرآن محدث لقوله : « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث » . قال اسحق : فالمجعول مخلوق ؟ قالوا : نعم . قال : القرآن مخلوق ؟ قالوا : لا نقول مخلوق ، ولكن مجعول . فكتب مقالهم ومقال غيرهم رجلاً رجلاً ، ووجهت الى المأمون فورد جواب الخليفة الى اسحق ابن ابراهيم ان يحضر قاضي القضاة بشر بن الوليد وابراهيم بن المهدي ، فان قالا بخلق القرآن والا تضرب اعناقهما . واما من سواهما فمن لم يقل بخلق القرآن يوثقه بالحديد ويحمله اليه . فجمعهم اسحق وعرض عليهم ما امر به المأمون . فقال بشر وابراهيم وجميع الذين احضروا لذلك بخلق القرآن الا اربعة نفر ، وهم احمد بن حنبل ، والقواريري ، وسجادة ، ومحمد بن نوح ، فانهم لم يقولوا بخلق القرآن ، ولم يصر الى النهاية الا احمد بن حنبل ومحمد بن نوح فبعث بهما الى المأمون مقيدين . (راجع تاريخ ابي الفداء ج ٢ ، ص ٣٠ — ٣١) .

١ عام ٢٣١ وفي ايام الخليفة الواثق اراد المسلمون ان يفتدوا ٤٦٠٠ اسير من اسراهم عند الروم فامتنعوا جموعهم ، ولم يفتدوا الا من قال بخلق القرآن.

قادر خالق لافعاله : خيرها وشرها ، مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة . والرب منزه عن ان يضاف اليه شر وظلم . وقول هذا كفر ومعصية ، لانه لو خلق الظلم لكان ظالماً ، كما لو خلق العدل كان عادلا .

والخالق لا يحب الفساد ، ولا يخلق افعال العباد ، بل هم يفعلون ما امروا به ، ونهوا عنه بالقدرة التي جعلها الله لهم ، وركبها فيهم . وانه لم يأمر الا بما اراد ، ولم ينه الا عما كره . وانه ولي كل حسنة امر بها ، بريء من كل سيئة نهى عنها ، لم يكلفهم ما لا يطيقون ، ولا يكلفهم ما لا يقدرون عليه . ولو شاء لجبر الخلق على طاعته ، ومنعهم اضطرارياً عن معصيته ، ولكان على ذلك قادراً ، غير انه لا يفعل ، اذ كان ذلك رفعاً للمحنة وازالة للبلوى [١] .

غير ان هذا الرأي الذي كان يرمي به جماعة المعتزلة الى تنزيه الخالق عن الظلم ، في تكليفه الانسان بالاتيان بالشر ، ثم بمحاسبته على عمله يوم القيامة ، لم يبق على سذاجته الاولى ، وانما انتقل الى مراحل اخرى ، بعد ان اعمل فيه المتطرفون جدلهم فرأى هؤلاء ان الله لا يقدر على المحال ، ولا على ان يجعل الجسم

---

١ المسعودي : المروج ج ٣ ، ص ١٥٣

ساكناً متحركاً معاً في حالة واحدة ، ولا على ان يجعل انساناً واحداً في مكانين [١] ، وغايتهم في ذلك ان ينزهوا قدرة الخالق فنفوا عنها الاتيان بالمعجزات ، بانصياعها لتتبع الاسباب المباشرة في اظهار المعلولات [٢] ، مما كاد يقربهم من جماعة الفلاسفة ، ويقصيهم عن اصل رئيسي من اصول الاسلام . ورأوا ان مناط تكليف الله الشامل للامر والنهي تابع لما في ذات الاشياء من الحسن أو القبح . فانتهوا الى القول بالتحسين والتقبيح العقليين ، وان السبيل هو اتباع هدى العقل ، فهو الذي يقودنا الى الخير ويصرفنا عن الشر . وجرياً مع منطقهم حملوا الرسول في آية « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا [٣] » على العقل ، دون المعنى الشرعي

---

١ ابن حزم : الفصل ج ٤ ، ص ١٤٦ .

٢ كان علي الاسواري البصري احد شيوخ المعتزلة يقول : ان الله لا يقدر على غير ما فعل . وان من علم الله انه يموت ابن ثمانين سنة ، فان الله لا يقدر على ان يميته قبل ذلك ، ولا ان يبقيه طرفة عين بعد ذلك ، وان من علم الله ان مرضه يوم الخميس مثلاً ، فان الله لا يقدر ان يبرئه قبل ذلك ، لا بما قرب ، ولا بما بعد ، ولا على ان يزيد في مرضه طرفة عين فما فوقها . وان الناس يقدرون كل حين على اماتة من علم الله انه لا يموت الا وقت كذا ، وان الله لا يقدر على ذلك . (الفصل ج ٤ ، ص ١٥٠) .

٣ الاسراء ، ١٥ . ولخص المتكلمون الخلاف في مسألة التحسين والتقبيح

المتبادر .

مصير مرتكب الكبائر

اتفقوا على ان المؤمن اذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب ، واذا خرج من غير توبة ، عن كبيرة ارتكبها ، استحق الخلود في النار ، غير ان عقابه اخف من عقاب الكفار ، وكاد يجمع مؤرخو الفرق على ان هذه النقطة كانت السبب الاول لنشوء الاعتزال [١] ، وانقسام الجماعة ، فوقفوا وسطاً بين تشدد

بهذا الضابط « عند المعتزلة ، حَسُنَ الشيءُ فامر الله به ، وقبح الشيء فنهى الله عنه . والاشاعرة ذهبوا الى العكس . »

١ دخل احدهم على الحسن البصري فقال : يا امامَ الدين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون اصحاب الكبائر . والكبيرة عندهم كفر يخوج به عن الملة ، وهم وعيدية الخوارج ، وجماعة يرجئون اصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم لا تضر مع الايمان . بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الايمان ، ولا يضر مع الايمان معصية . كما لا ينفع مع الكفر طاعة . وهم مرجئة الامة فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً ؟ فتفكر الحسن في ذلك ، وقبل ان يجيب ، قال واصل بن عطاء : انا لا اقول ان صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ، ولا كافر مطلق ، بل هو في منزلة بين المنزلتين ، لا مؤمن ولا كافر . ثم قام واعتزل الى اسطوانة من اسطوانات المسجد ، يقرر ما اجاب به الجماعة من اصحاب الحسن . قال الحسن : اعتزل عنا واصل . فسمي واصحابه معتزلة . (الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ، ص ٥٥) .

الخوارج وتساهل المرجئة .

ومن الثابت ايضاً ان هذا الموقف المعتدل كان شبيهاً بموقفهم في مسألة الامامة . فذهبوا الى انها تجوز في قريش وغيرهم ، وان اختيار الامام مفوض الى الامة ، تختار رجلاً منها ، ينفذ فيها احكامه سواء كان قرشياً او غيره من المسلمين واهل العدالة والايمان . ولم يراعوا في ذلك النسب ولا غيره [١] ، فيستحقها من كان قائماً بالكتاب والسنّة ، فاذا اجتمع قرشي ونبطي وهما قائمان بالكتاب والسنّة تولى القرشي ، والامامة لا تكون الا باجماع الامة واختيار ونظر

فرق المعتزلة قسم المؤرخون المعتزلة ، كعادتهم عند درس الفرق الاخرى ، الى فرق ثنوية متعددة ، يتزعم كل واحدة منها رجل تشتهر باسمه . فينضم اليه جماعة من المجادلين يثبتون تعاليمه ، ويناهضون الجماعات الاخرى بكل ما وهبوا من قوة الجدل ومتانة الاسلوب .

حتى ان بعضهم زعم ان حلقات الاعتزال ، بعد ان تنظمت وتقررت تعاليمها ، وتحددت اغراضها ، كانت توجه الدعاة الى

---

١ المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ، ص ١٥٣ .
٢ النوبختي : كتاب فرق الشيعة ص ١٠ .

اطراف المملكة الاسلامية ليبثوا هناك آراء الجماعة النازلة في البصرة او في بغداد ، كما فعل فيما بعد اصحاب التشيع في نشر آرائهم السياسية ، تحت ستار من التعاليم الدينية . وليس من الممكن الآن تبيين تلك الرحلات التبشيرية بالتفصيل ، على ان وجودها يكاد يكون ثابتاً[١].

قسم اذاً هؤلاء المؤرخون المعتزلة الى واصلية وهذيلية ونظامية ، وجعلوا على رأس كل منها واحداً من اشهرهم : ثم المعمرية اصحاب معمر بن عباد السلمي ، وهو من اعظم القدرية مرتبة في تدقيق القول بنفي الصفات ونفي القدر خيره وشره عن الله ، ثم المزدارية اصحاب عيسى بن صبيح المكنى بابي موسى الملقب بالمزدار ، تلميذ بشر المعتمر ، وقد اطلق عليه بعضهم اسم « راهب المعتزلة » لزهده وتقشفه ، واقتصاره على القليل من ضروريات الحياة . ثم الثمامية من اصحاب ثمامة بن اشرس النميري ، وكان جامعاً بين ضعف الدين وخلاعة النفس . عاش ايام المأمون وكان مقرباً منه ، ثم الهشامية ، اصحاب هشام بن عمر الفوطي ، وكان يجوز القتل والغيلة على المخالفين لمذهبه ، واخذ اموالهم غصباً لاعتقاده بكفرهم ، ثم الجاحظية ، اصحاب عمرو بن بحر الجاحظ

---

١ زعم الجاحظ ان الحواس جنس واحد ، وان حاسة البصر من جنس

الاديب المشهور الذي غرف من بحار العلم والفلسفة ايام الخليفتين المعتصم والمتوكل ، ثم الجبائية اصحاب ابي علي محمد بن عبد الوهاب ، وابنه ابي هاشم عبد السلام ، وهما من زعماء معتزلة البصرة .

السنّة

نشأتها

نشأت السنَّة بظهور الاسلام . ولكنها لم تتخذ لنفسها شكلاً معيناً ، ولم تقرر مبادىء خاصة . ولم تتفرد بطريقة للجدل والاثبات الا في منتصف القرن الثالث الهجري ، بعد ان ازدحمت الفرق الاخرى وتشعباتها في صدور المسلمين في مختلف الاصقاع .

ففي الخضم الذي اضطرب فيه المسلمون ، منذ ظهور الشيعة

حاسة السمع ، ومن جنس سائر الحواس . وانما يكون الاختلاف في جنس المحسوس ، وفي موانع الحسّاس والحواس ، لا غير ذلك . لان النفس هي المدركة من هذه الفتوح ، ومن هذه الطرق ، وانما اختلفت فصار واحد منها سمعاً ، وآخر بصراً ، وآخر شماً ، على قدر ما مازجها من الموانع . فاما جوهر الحسّاس فلا يختلف ، ولو اختلف جوهر الحسّاس لتمانع ولتفاسد ، كتمانع المختلف ، وتفاسد المتضاد . (مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٣٤٠ ـ ٣٤١) .

والخوارج ، الى بروز المرجئـة ، الى انفصال المعتزلة ، كان هناك فئة جد مؤمنة ، وجد محافظة على العاطفة الدينية ، والايمان الذي لا يشوبه شك ، واليقين الذي لا يخالطه ريب ، اطلقت على نفسها او عرفت منذ نزول الرسالة باسم الجماعة او السنَّة . وهي دون شك تؤلف الاكثرية بين جموع المؤمنين .

هذه الطائفة احتفظت بالاسلام فطرياً ، كما نزل ، مثابرة على عقيدة تنتسب باوثق الصلات الى عقيدة الخلفاء الراشدين والصحابة الاولين الذين جاهدوا في سبيل الدين ، ووعوا تعاليمه وعرفوا نواهيه .

لم تتأثر بالخصومات الدامية ، ولم تعن بالفلسفات الطارئة ، واجتازت القرنين الاول والثاني ومنتصف الثالث ، وهي امينة على تقاليدها ، تستهدي بالكتاب والسنَّة وحياة الصالحين من المؤمنين .

يرمز الى هذه النزعة شخصيتان من اشهر الشخصيات الاسلامية هما الحسن البصري واحمد بن حنبل .

حاجة السنة الى الجدل

كان المؤمنون يأخذون على ائمتهم ضعف الحجة وكلال السلاح ، في مهاجمة النزعات المتفلسفة الهدامة ، ولاسيما تلك الآراء الدخيلة التي تفشت بين العامة وتدرس في زوايا الجوامع . فيقبل عليها الناس على مختلف طبقاتهم الاجتماعية وتحصيلهم العلمي . فان الجواب

الذي كان يقابل به الائمة المحافظون اسئلة المتطفلين واحد او اثنان لا يعدونهما . تارة يطلبون من السائل ان يقلع عن سؤاله ، لانه حرام ، وطوراً يطلقون عليه لقب « الكافر » ، فينصرف مشيعاً بلعنات الجماعة ، واحياناً يؤوّل الناس كلام الامام بالعجز عن اللحاق بالافكار المستحدثة ، فينشأ في صدور المترددين شك قاتل يدفعهم بعد قليل الى زاوية من الزوايا الكلامية التي تشبع نهمهم بما تغلف به المسائل اللاهوتية من جدل سقراطي او منطق مشائي

شاعت التعاليم الدينية المتفلسفة ، كما رأينا ، بين جميع الناس ، حتى اعتنقها الخلفاء كمذهب رسمي ، تدافع الدولة عنه ، وتضطهد مخالفيه ، وتشجع معتنقيه ، فتفتدي الجند القائلين بخلق القرآن ، اذا وقعوا في قبضة العدو ، وتهمل القائلين بقدمه .

فكان من اثر هذا الاستضعاف من جانب السنّة والوثوب من جانب الفرق « المتكلمة » ولا سيما المعتزلة ، والجهمية [١] ، والمشبهة ،

---

١ اصحاب جهم بن صفوان ، وقد قال هذا ان الجنة والنار تبيدان وتفنيان . وان الايمان هو المعرفة بالله فقط ، والكفر هو الجهل به . وانه لا فعل لاحد في الحقيقة الا لله وحده ، وانه هو الفاعل . وان الناس انما تنسب اليهم افعالهم على المجاز كما يقال « تحركت الشجرة ، ودار الفلك ، وزالت الشمس » ، وانما فعل ذلك بالشجرة والفلك والشمس الله سبحانه . الا

ان انصرف قسم ليس بقليل من اصحاب الايمان العاطفي الى التصوف يلتمسون فيه ما اضاعوه في دنيا الناس . فاحست البقية الباقية من الجماعة ان السبب في ركود رأيهم ، وذهاب ريحهم ، هو الجمود الذي ما زال مستولياً عليهم . فقد استيقظ العقل وشرع الشك يعمل عمله في الاسس الدينية من كتاب وحديث واثر ، وتسربت الى المتأولين والناقدين والشاكين اساليب جديدة لا عهد للشريعة بها من قبل ، يتخذونها سلاحاً في مداورة الرسالة واضعاف شأنها . وهم لا يزالون متمسكين بقديمهم ، ليس للسلاح الذي يعتمدون عليه شأن ، كما لم تكن السلطة الحاكمة تفرض رأيهم على الناس فرضاً . فكان لا بد من اصلاح شامل يعدل اساليب الدفاع ، ويوجد للهجوم طرقاً حديثة . وكان لا بد من ظهور رجل او رجال ، وقفوا على سر قوة العدو ، ومرنوا في

انه خلق للانسان قوة كان بها الفعل . وخلق له ارادة للفعل واختياراً له ، كما خلق له طولاً كان به طويلاً ، ولوناً كان به متلوناً . وكان ينتحل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويقول : لا اقول ان الله سبحانه شيء ، لان ذلك تشبيه له بالاشياء ، وعلم الله محدث . ويعتقد بخلق القرآن ، ولا يعتقد ان الله عالم بالاشياء قبل وقوعها . قتل جهم في مرو ، قتله ابن احوز المازني في آخر ملك بني امية (راجع مقالات الاسلاميين : ج ١ ، ص ٢٧٩ — ٢٨٠ ، وتاريخ الجهمية والمعتزلة للشيخ جمال الدين القاسمي ، مصر ١٣٣١ هـ) .

مداوراته ، وحذقوا ابواب نزاله ، يقارعونه في ميدانه ، ويصاولونه بانواع سلاحه . فيقرع القياس بالقياس ، والبرهان بالبرهان . ويستقون القوة الجدلية من منبع واحد ، ويستندون الى مقدمات مسلم بها ، ويحتكمون الى العقل ، بعد ان فشلت العاطفة في اداء المهمة . فكان هذا الرجل علي بن اسماعيل الاشعري الملقب بأبي الحسن . « فهو مؤسس كلام اهل السنّة ، واول من استعمل طريقة المتكلمين في البحث والمناظرة والاستدلال العقلي لنصر مذهب اهل الحديث[1] . »

الاشعري

مولده ولد في البصرة عام ٢٦٠ هـ (٨٧٣ — ٨٧٤ م) . وظل الى الاربعين من عمره منتمياً الى الجبائي[2] زوج امه ، وعندئذ اختلفا فتركه .

---

١ ابو الحسن علي بن اسماعيل الاشعري : مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين ، طبعة هـ . ريتر ، استانبول ، مطبعة الدولة ١٩٢٩ ص : ي .

٢ ابو علي محمد بن عبد الوهاب ، ولد في خوزستان . وهو من زعماء الاعتزال ، توفي سنة ٣٠٣ هـ (٩١٥ — ٩١٦ م) ، والف كتاباً في الاصول .

اسباب الاختلاف متعددة ، غير متفق عليها . يروي بعضهم انه انفصل عن استاذه لرؤيا نزل عليه فيها النبي مرات متعددة فامره بترك التعاليم التي درسها ، واتباع السنّة كما تدين بها الجماعة . وآخرون يرون ان السبب يعود الى انه سأل استاذه ذات يوم قائلاً : ما تقول في ثلاثة اخوة اخترم الله احدهم قبل البلوغ ، وبقي الاثنان . فآمن احدهما ، وكفر الآخر . فأين يذهب الصغير ؟ فاجاب الجبائي : انه يذهب الى مكان لا سعادة فيه ، ولا عذاب . فانكر عليه ذلك الاشعري ، وسأله : لماذا يرسله الى ذلك المكان ، وهو لم يأت شراً ولا خيراً ؟ فقال الجبائي : انما اخترمه لانه علم انه لو بلغ لكفر . فقال الاشعري : فقد احيا احدهم فكفر فلماذا لم يمته صغيرا ؟ فلم يجر الجبائي جواباً . فقال الاشعري جملته المشهورة : « وقف حمار الشيخ في العقبة . » يرى سبيتا [1] ان الحادثة هذه لا شك مخترعة . ولعل السبب الذي دفعه الى الانفصال عن الاعتزال يعود الى النتيجة المشوهة التي توصل اليها بعد جهود سابقيه ، وبحوث معلمه ، واستنتاجاته الشخصية . ومنذ ذلك الحين اخذ يدافع عن العقيدة السنية ويقاوم الجهمية والرافضة

---

١ W. Spitta: Zur Geschichte Abul-Hassan al-Asari's.

والمعتزلة الى ان توفي في بغداد عام ٣٢٤ هـ (٩٣٥ م) .

مؤلفاته وضع مؤلفات عديدة في العقيدة والجدل ، حتى قيل انه الف ما يقدر بثلاثماية كتاب . يذكر ابن عساكر عنوان تسعة وتسعين لم يصلنا منها الا العدد القليل . ونسخها عزيزة الوجود جداً في دور الكتب ، لم يطبع منها الا النزر اليسير ، ككتاب « الابانة عن اصول الديانة » ، طبع بحيدر آباد ، سنة ١٣٢١ هـ (١٩٠٣ م) ، ورسالته في « استحسان الخوض في الكلام » طبعت فيها ايضا سنة ١٣٢٣ هـ. ثم نشرت رسالته التي كتب بها الى اهل الثغر ، اذاعها قوام الدين بك في مجموعة قسم الالهيات من الجامعة الاستانبولية (الهيات فاكولته سي ٧ و ٨) ، واخيراً نشر له المستشرق الالماني ريتر [٢] كتابه الشهير المعروف « بمقالات الاسلاميين واختلاف المصلين » .

---

١ عندما رجع عن قوله بالاعتزال دخل المسجد الجامع في البصرة يوم الجمعة ، ورقي كرسياً ونادى باعلى صوته : « من عرفني ، فقد عرفني ، ومن لم يعرفني ، فانا اعرّفه بنفسي . انا فلان بن فلان ، كنت اقول بخلق القرآن ، وان الله لا تراه الابصار ، وان افعال الشر انا افعلها ، وانا تائب معتمد الرد على المعتزلة ، مخرج لفضائحهم ومعايبهم . »

٢ Bibliotheca Islamica , H. Ritter , Istambul 1929.

كان هذا الكتاب نسياً منسياً ، لا يُلتفت اليه . وكان الذين يريدون الاطلاع على مذاهب الفرق الاسلامية ، يرجعون الى كتاب « الملل والنحل » ، وكتاب « الفصَل »[١] ، وكتاب «الفرق بين الفرق» ، في حين ان كتاب الاشعري اقدم تأليفاً من جميع هذه الكتب المذكورة ، واصح اخباراً منها ، واحق بالاعتماد عليه ، لان مؤلفه سلك سبيلاً بعيدة عن التعصب والتحيز الى فئة ، وترك ما اختاره بعض المتأخرين من التشنيع على المخالفين وتكفيرهم ولعنهم ، وقد نقل عنه جميع الذين عرضوا لمبادىء الفرق الاسلامية .

الاسباب التي حالت دون انتشار الكتاب في العالم الاسلامي ان ترتيبه غير مألوف ، وغير ميسر للحفظ والتعليم . وذلك ان المؤلف رتب بعض الكتاب بحيث يعرض للفرق وبعضه للمسائل . وكثر التقسيم والتعديد . ثم انه قسم الكتاب قسمين اولهما في الجليل من الكلام ، والثاني في الدقيق منه . وذكر في الثاني بالتفصيل بعض ما ذكره في الاول بالاجمال . واوجب ذلك تكراراً وذكراً للقول الواحد في مواضع متعددة[٢] .

---

١ الكتاب نفسه ، ص : يا .

٢ الكتاب نفسه ، ص : يب .

قال ابن عساكر في كتاب « تبيين كذب المفتري فيما نسب الى الإمام الاشعري » : كان الاشعري تلميذاً للجبائي ، يدرس عليه ، ويتعلم منه ، ويأخذ عنه ، لا يفارقه اربعين سنة . وكان صاحب نظر في المجالس ، وذا اقدام على الخصوم ، ولم يكن من اهل التصنيف ، وكان اذا اخذ القلم يكتب ربما ينقطع ، وربما يأتي بالكلام غير مرضٍ . وكان ابو علي الجبائي صاحب تصنيف وقلم ، اذا صنف يأتي بكل ما اراد مستقصى ، واذا حضر المجالس وناظر لم يكن بمرضٍ . وكان اذا دهمه الحضور في المجالس يبعث الاشعري ويقول له : نب عني [1] . آخر حادثة ذكرت فيه خروج القرمطي المقتول على الدكة ، وكان ذلك في سنة ٢٩١ هـ ، ويثبت منه ان الكتاب الف بعد هذه السنة .

الاشعرية او السنة المتفلسفة

المحافظون والاشعرية

رغم ان الاشعرية ساندت المبادىء السنية ببراهينها العقلية ،

---

١ الكتاب نفسه ، ص : بح

واتبعت الائمة في كثير من نظرياتهم ، وحاولت في جميع ما وضعته ان تتوصل في نهاية مباحثها الى ما تقره السنَّة ، فان اتكالها على المنطق كان من الاسباب التي ابعدتها عن الجماعة المحافظة . فلم يكن لدى هذه الفئة من فارق بين الاعتزال والاشعرية . فعلم الكلام ، معتزلياً كان ام اشعرياً ، هو عدوهم الاكبر ، وخصمهم الذي لا يطيقون له ظلًا ، وان اثبت ما يدينون به . والامام الشافعي يرمز الى هذه النزعة عندما يحكم على اهل الكلام ان يضربوا بالسياط والنعال ، وان يحملوا الى جميع القبائل والمجتمعات وينادى بهم : هذا جزاء الذي يدع القرآن والسنَّة ، ويعنى بعلم الكلام .

فليس المؤمن من يحثو امام العقل ، لان لا سبيل له الى معرفة حقيقة الايمان . وهكذا اصبح المذهب الاشعري بين نارين كجميع المذاهب التوفيقية . نظر المعتزلة والفلاسفة اليه نظرة الامتهان ، وحمل عليه المتطرفون في محافظتهم ، لانه يعتمد على الطرق الفلسفية [١] . فرأى من يقول به ان ينزع من

---

١ حاول الحنابلة ان يمنعوا الخطيب البغدادي المتوفى في عام ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) من دخول المسجد الجامع ببغداد ، لانه كان يذهب مذهب الاشعري . وكان كبار الاشاعرة في ذلك العهد يضطهدون وينفون . وقرب اواخر القرن الرابع تحاملت الحنابلة على رجل منهم مشهور هو القشيري ،

اذهان العامة الاعتقاد القائل بخروج الاشعري عن السنة . فذكر القشيري (توفي سنة ٤٦٥ هـ) ان كل اصحاب الحديث متفقون على ان الاشعري هو امام الائمة ، وان مذهبه يوافق روح الاسلام ، وانه سيف سل في وجه المعتزلة والفرق المخالفة للدين ، وان كل من يظن به سوءاً ، او يلعنه او يحتقره ، يحتقر جميع المؤمنين . كتب هذا عام ٤٣٦ هـ وشهد عليه كثيرون من علماء العصر .

لم تجرؤ الاشعرية مدة طويلة على التعليم علناً ، ولم يظهر مبدؤهم ظهوراً عاماً الا في اواسط القرن الحادي عشر ، عندما اخذ الوزير السلجوقي نظام الملك ، بتأسيس المدارس النظامية في نيسابور وبغداد وبلخ وغيرها من الحواضر الاسلامية . فدرست فيها نظرية الاشاعرة على انها النظرية المسلم بها شرعاً . وفي هذه المدارس تم النصر للمبدأ الاشعري على جماعة الاعتزال والمحافظين السنيين . فالمدارس النظامية اذاً لم تقتصر في مهمتها على ايجاد

ووقع بسبب تهييج الحنابلة ، قتال في الشوارع ، اضطر القشيري الى ترك بغداد . ومن هذه الحادثة ارخ ابن عساكر مبدأ وقوع الانحراف بين الحنابلة والاشاعرة . (ادم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ج ١ ، ص ٣٢٩ ، ترجمة ابو ريده ، القاهرة ، ١٩٤٠).

نهج جديد للتعليم ، بل تعدت ذلك الى نقل اللاهوت الاسلامي من طور الى طور آخر .

ونشر الاشعريـة في المغرب ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين ، وتلميذ الغزالي حوالى عام ٥٠٠ هـ (١١٠٧ م) . ثم انتقلت من بلد الى آخر ، فقامت لها سوق في صقلية والقيروان والاندلس [١] . ويذكر ابن رشد عندما يتكلم عن انقسام اهل الملة ان الاشاعرة هم الذين يرى اكثر اهل زمانه انهم جماعـة السنّة [٢] .

تحرير لمذهب الاشاعرة

من العسير حقاً ان نتبين فيما كتب عن الاشعري مذهبه الخاص . فهو في الكتاب الاخير الذي اشرنـا اليه لا يعرض للاشعرية بقليل ولا بكثير . وانما يكتفي بعرض الموقف الذي تقفه الفرق من المسائل الطـارئة . يعرضه دون ان يفند ، او ينقد ، او يبين وجه الصواب او ناحية الخطـأ . وهو لا يشير الى ان هناك فرقة اشعرية او سنية او متفلسفة تدلي بدلوها بين الدلاء وانما يخص بها مقطعاً مقتضباً لا شأن له ولا خطر ، لا نلمس فيه

---

١ ادم متز : الحضارة ج ١ ، ص ٣٤٠ .

٢ ابن رشد : الكشف عن مناهج الادلة ص ٤١ ، طبعة التجارية ، القاهرة .

ما نحن ننتظره من جدل ومقدمات واستنتاجات منطقية .

والواقع ان الاشعرية ، وان نسبت الى الاشعري ، هي على الاكثر من صنع اتباعه ، ومن نتاج اشياعه ، من تصنيف الباقلاني وابن فورك والاسفرايني والقشيري ، والجويني امام الحرمين ، والغزالي . هؤلاء تعهدوا غرسة الاشعري الاولى باساليبهم ، واخرجوها الى الناس بالثوب الذي تطالعنا به الان متجزئة في كتب الفرق . لذلك يكاد يستحيل على المحقق المعاصر ان يتبين في هذا الخضم الزاخر من الآراء ، والتداخل العديد في الافكار ، تسلسل اجزاء الطريقة ، وتتابع فصولها ، وعمل كل واحد من المساهمين في تأليفها . فهي امامنا كتلة واحدة تحمل اسم الاشعرية . وقد يكون للاشعري نفسه فضل البدء بها ، دون فضل التحديد والتفصيل .

النتيجة العملية التي يمكن الانتهاء اليها ، هي ان الجماعة التي عرفت بالسنّة المتفلسفة ، اقتبست اسلوب الاعتزال ، ووقفت موقفاً متوسطاً معتدلاً بين الغلاة والمحافظين . فكان لها رأي توفيقي بين مختلف الآراء الاسلامية التي تتناقض في معظم ما يتعلق بالاصول اللاهوتية ، ولاسيما في مسألة الحرية الشخصية وطبيعة القرآن . غير ان موقفها من فكرة الخالق ، وتحديد ذاته ، كان جازماً حازماً لا هوادة فيه ، ولا مسالمة .

عنـدما خرجت السنَّة المتكلمة الى ساحة الجـدل ، كانت المعتزلة قد سبقتها الى اخفات صوت المشبهة والمجسمة الغالية في تجسيد الخالق . وكانت قد حاربت الدهرية والشيعة المتطرفـة حرباً عنيفة . لذلك يمكننا القـول ان المعتزلة قامت بقسم من المهمة الملقاة على عاتق الاشعرية ، ومهدت امامها سبل العمل ، وكأنها بهذا التمهيد لم تبق امام الجماعة الجديدة من عدو تحاربـه سواها ، وسوى الفلاسفة . اما هؤلاء فهم جد اقوياء ولا سبيل للسنَّة في مهـاجمتهم بعد . فـلم يبق سوى المعتزلة وفلول من الفرق التي تهدمت ، لتتحمل هجمات الفرقة الجديدة الناشئة .

وجود الله

من الاسس التي تبنى عليها الفرق المتفلسفة اثباتُ وجود الخالق ، وتحديد صفاته ، ليكون ذلك مقدمات متفقاً عليها تستنتج منها فيما بعد ما تشاء ، استنتاجه من التأويلات . والفـرق الاسلامية ، وان يكن جميعهـا يؤمن بوجود الخالق وببعض صفاته ، رغم الاختلافات في كيفية نسبة هذه الصفات اليـه ، طريقُها في اثبات هـذا الوجود عاطفي لا يحتاج الى برهان او قياس منطقي ، لانها لا تجرؤ على انكاره ، ففي الانكار خروج عن الاسلام وكفر بالدين . لذلك لم نجد في كل ما وقع بين ايدينا محاولة في هذا السبيل . اما الاشعرية ، ولنطلق عليها اسم السنَّة من الآن فصاعداً ، فقد كانت تتوجه

ليس الى المعتزلة والجهمية فحسب ، بل احياناً الى الدهريين الذين يكفرون بالخالق وينكرون وجوده .

عندما يحاول الكتاب اثبات وجود الله يعمد الى الاسلوب الخطابي العاطفي ، فيقول : « وَهُوَ الَّذي مَدَّ الارضَ وجَعَلَ فِيها رواسيَ وأَنهاراً ، وَمِنْ كُلِّ الثَّمراتِ جَعَلَ فيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُغْشِي اللَيلَ النهارَ ، إنَّ في ذٰلكَ لآياتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرون [1] » ويقول : « وفي الأَرضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخيلٌ صِنْوانٌ وغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقَى بِماءٍ واحِدٍ ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَها على بَعْضٍ في الأُكُلِ ، إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلون [2] » ويقول : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمواتِ وَمَنْ في الارضِ والشمسُ والقمرُ والنجومُ والجِبالُ والشجرُ والدَّوابُّ وكثيرٌ من الناس [3] » ويقول : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ والارضَ وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُون [4] » ويقول : « خَلَقَ السمواتِ والارضَ بالحَقِّ وصوَّرَكم فأَحسَنَ

---

١ الرعد ، ٣ .

٢ الرعد ، ٤ .

٣ الحج ، ١٨ .

٤ العنكبوت ، ٦١ .

صُوَرَكم وإِلَيْهِ ٱلمَصِيرُ[1] .» وفي هذه الآيات من البلاغة ما يدفع المتردد الى الاقبال على الدين ، والايمان بالخالق ، والتسليم بقدرته . فقد كان لها في العهد الاول اثر يزيد بكثير على الاساليب الجدلية والمنطقية . فكثيراً ما كان العربي يصغي الى الآيات ولاسيما التي تعرض للقيامة والنار وهو مقشعر البدن .

غير انها اصبحت بعد انتشار الفرق وتفشي التأويل ، والتخريج ، وانضمام اهل الديانات الاخرى الى الاسلام ، لا تؤثر في القلوب بل تستتبع اسئلة جد محرجة للقراء والائمة . فالرجل الجديد جامد العاطفة ، فاقد الشعور ، مستيقظ العقل ، حاد النقد ، كثير الشك ، لا يقدس ما يقوله الامام ، ولا يسلم بما ينزل على الانبياء . لذلك استعادت السنَّة المتفلسفة في حظ كبير من الابتكار اساليب الفلاسفة في اثبات وجود الخالق ، وعددت البراهين بشكل لا يدع للسامع مجالا للتساؤل والاستفهام .

قام برهانهم الاول على بيان ان العالم حادث . وثبت عندهم حدوث العالم بالقول بتركيب الاجسام من اجزاء لا تتجزأ ، وان الجزء الذي لا يتجزأ محدث ، والاجسام محدثة بحدوثه .

---

١ التغابن ، ٣ .

٢ ابن رشد : الكشف عن مناهج الادلة ص ٤٣ .

تأمل بعضهم في العالم فرأى انه يتألف من صورة ومادة . وهدته التجربة الى ان الصورة متقلبة متغيرة ، تتتابع على المادة الواحدة ، فهي مخلوقة حادثة ، تؤيد ذلك حاسة النظر . ثم ثبت بالحواس والعقل ايضاً انه لا يمكن تخيل المادة وحدها دون صورة . واتفق العلماء على ان كل موجود يتصل بآخرَ مخلوقٍ ولا ينفصل عنه ، هو ايضاً مخلوق . فاستنتجوا من ذلك ان العالم المؤلف من مادة وصورة مخلوق . وانتقلوا من هذه النتيجة الى تأليف قياس آخر يؤكد وجود الخالق [1] .

وينسب الشهرستاني الى الاشعري دليلاً ثانياً يقرب من

---

١ الفكرة مؤلفة من ثلاثة اقيسة : الاول يتخذ الشكل الآتي :
كل موجود يتحد بآخر مخلوق ولا ينفصل عنه هو ايضاً مخلوق ،
المادة تتحد بالصورة المخلوقة ولا تنفصل عنها ،
اذاً المادة مخلوقة .
القياس الثاني :
كل مركب مؤلفٍ من اجزاء مخلوقة هو حادث ،
العالم مؤلف من المادة والصورة المخلوقتين ،
اذاً العالم حادث .
القياس الثالث :
لكل حادث محدِث ،
العالم حادث ،
اذاً للعالم محدث .

الدليل الديني ، ويعرف في التعبير العصري بـ« دليل العناية ». « اذا فكر الانسان في خلقته من اي شيء ابتدأ ، وكيف دار في اطوار الخلقة ، طوراً بعد طور ، حتى وصل الى كمال الخلقة ، وعرف يقيناً انه بذاته لم يكن ليدبر خلقته ويُبلغها من درجة الى درجة ويرقيها من نقص الى كمال ، عرف بالضرورة ان له صانعاً قادراً عالماً مريداً ، اذ لا يُتصور صدور الافعال المحكمة من طبع ، لظهور آثار الاختيار في الفطرة وتبين آثار الاحكام[1]. »

وللاشعرية برهان ثالث بني على مقدمة ، وهي ان الموجودات في الكون تقسم الى قسمين : واجبة وممكنة . فالله وحده هو الواجب الوجود ، لانه لا يمكن تخيل وجود الكون بدونه . والعالم وجميع الكائنات هي ممكنة الوجود ، لانه يمكن تخيل وجودها وعدمه ، فبنوا على هذه المقدمة برهانهم الثالث في حدوث العالم ووجود الخالق ، واتفقوا على ان العالم ممكن ، والا لعادل الله في الالوهية . والممكن هو الذي يتعادل امكان حدوثه وعدمه . وبما انه وُجد وجب ان يكون هناك « مرجح » فضّل الوجود على عدمه . وهذا المرجح هو « الله ». وقد استخدم الفارابي وابن سينا هذا المبدأ فيما بعد لاثبات

---

١ الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ، ص ٩٨ .

وجود الخالق .

صفات الله

تحمل الاشعرية حملة جد عنيفة على النظرية الاعتزالية . ففي الكتاب الذي عثر عليه أخيراً للاشعري وطبع في حيدر اباد [1] توضيح لموقفه من هذه المشكلة الهامة ، ومخالفته للرأي الاعتزالي . فقد جاء في مقدمته : « قولنا الذي نقول به ، وديانتنا التي ندين بها ، التمسك بكلام ربنا ، وسنّة نبينا ، وما ورد عن الصحابة والتابعين وائمة الحديث . ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول ابو عبد الله احمد بن حنبل ، نضر الله وجهه ، ورفع درجته ، واجزل مثوبته ، قائلون ، ولما خالف قوله مخالفون ، لانه الامام الفاضل ، والرئيس الكامل الذي ابان الله به الحق ، ودفع به

---

١ حمل ابن رشد على هذه الفكرة بضرب من المغالطة المنطقية ، ووجه انتقاده بعد عرضه للاشعرية لابن سينا فقال « . . . وقد تجد ان ابن سينا يذعن لهذه المقدمة بوجه ما ، وذلك انه يرى ان كل موجود ما سوى الفاعل ، فهو اذا اعتبر بذاته ، ممكن وجائز . وان هذه الجائزات صنفان :صنف هو جائز باعتبار فاعله ، وصنف هو واجب باعتبار فاعله ، ممكن باعتبار ذاته . وان الواجب بجميع الجهات هو الفاعل الاول . وهذا قول في غاية السقوط . وذلك ان الممكن في ذاته وفي جوهره ليس يمكن ان يعود ضرورياً من قبل فاعله والا انقلبت طبيعة الممكن الى طبيعة الضروري . (الكشف ص ٥٧ ــ ٥٨) .

٢ كتاب « الابانه عن اصول الديانه » . حيدر اباد سنة ١٣٢١ هـ ، ص ٤١ .

الضلال ، واوضح المنهاج ، وقمع به بدع المبتدعين ، وزيغ الزائغين ، وشك الشاكين ، فرحمة الله عليه من امام مقدم ، وجليل معظم ، وكبير مفهم[1] .» فهو اذاً في مستهل كتابه يتخذ لنفسه موقفاً معيناً ، وينضم الى جماعة السلف الذين لا يعرفون شيئاً من التساهل في العقيدة . ويحمل على المعتزلة حملة شعواء ويهزأ بهم عندما يحاولون تأويل النصوص الدينية المتعلقة بصفات الخالق تأويلاً روحانياً رمزياً . قال الاشعري : « فان سألنا سائل فقال : ما تقولون ان لله يدين ؟ قيل نعم ، نقول ذلك لقوله تعالى : « يد الله فوق ايديهم » ، ولقول النبي : خلق الله آدم بيده ، وغرس جنة طوبى بيده . وجاء « بل يداه مبسوطتان » ، وفي الحديث : كلتا يديه يمين[2] . فالواجب ان نأخذ كل هذه المسائل حسب دلالتها اللفظية وليس حسب التأويل والتخريج ، وان لا نفهم بكلمات « وجه ، ويدين ، وقدمين » ما نفهمه باعضاء الانسان المخلوق ، وانما علينا ان

---

١ نقلها عبد الحي بن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في اخبار من ذهب ج ٢ ، ص ٣٠٤ ، طبعة القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ .

٢ ابن قيم الجوزية : مختصر الصواعق المرسله على الجهمية والمعطله ج ٢ ، ص ١٦٩ .

نفهمها بلا كيفية [1]. فعلى المسلم الايمان بهـا لان السؤال عن معانيها بدعة ، والجواب كفر وزندقة ، ولا تترجم صفاته بلغة غير اللغة العربية [2]. »

والواقع ان اهل الاعتزال كانوا قد ساروا شوطاً بعيداً في القضاء على المجسمة . فأولوا الآيات القرآنية التي يرد فيها ذكر الصفات المادية — كما تقدم معنا — وحاولوا انكار الاحاديث المتعلّقة بها . اما السنّة فلم يكن بوسعها ان تفعل ذلك ، لان الحديث كان قد اسرف في ذكر صفات الخالق، تلك الصفات التي تمثله تمثيلاً انسانياً مادياً لا سبيل الى الشك فيه ، نذكر منها واحداً ورد في مسند احمد بن حنبل جاء فيه عن النبي انه خرج ذات غداة وهو طيب النفس ، مسفر الوجه . فقيل : يا رسول الله انّا نراك طيب النفس ، مسفر الوجه . فقال : وما يمنعني واتاني ربي عز وجل الليلة في احسن

---

١ روي عن الربيع بن سليمان قال : سألت الشافعي عن صفات الله تعالى فقال : حرام على العقول ان تمثل الله تعالى ، وعلى الاوهام ان تحده، وعلى الظنون ان تقطع ، وعلى النفوس ان تفكر ، وعلى الضمائر ان تتعمق، وعلى الخواطر ان تحيط ، وعلى العقول ان تعقل ، الا ما وصف الله به نفسه ، او ما جاء على لسان نبيه .

٢ ابن قيم الجوزية : ج ٢ ، ص ٢٥٠ .

صورة . قال : يا محمد ! قلت : لبيك ربي وسعديك . قال : فيم يختصم الملأ الاعلى ؟ قلت : لا ادري اي رب ! قال ذلك مرتين او ثلاثاً . قال : فوضع كفيه بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي ، حتى تجلى لي ما في السموات وما في الارض الخ [1] .

فأول الاشاعرة ذلك بان النبي رأى الخالق في منامه ، فهو يروي ما رآه في حلمه ، وليس في يقظته . وروي عن النبي قوله : ينزل ربنا كل ليلة الى سماء الدنيا ثلث الليل الاخير ، فيقول هل من سائل فاعطيه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من تائب فأتوب عليه ؟ فجعلته المجسمة نزولا على الحقيقة ، واوّلته السنّة او بالاحرى اوّله ابو بكر ابن فورك بان الله يأمر ملكاً بالنزول الى السماء الدنيا فينادي بامره ، كما يقول العرب : انت ضربت زيداً ، وانت لم تضربه ، اذا كنت قد رضيت بذلك ، وشايعت عليه . وروى بعضهم الحديث بضم الياء [2] .

اما الدليل المنطقي الذي عمدت اليه الاشعرية في اثبات روحانية الخالق ، فيتلخص بقولهم انه لا يوجد في العالم الا جسم

---

١ مسند احمد ج ٤ ، ص ٦٦ .

٢ كتاب الانتصار ص ٤٢ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، مصر سنة ١٩٢٥ م .

او عرض ، وكلاهما يقتضي وجود محدث له ، فبالضرورة نعلم انه لو كان محدثها جسماً او عرضاً لكان يقتضي فاعلاً يفعله . فوجب بالضرورة ان لا يكون فاعل الجسم والعرض جسماً ولا عرضاً . ثم لو كان الباري جسماً لاقتضى ذلك ان يكون له زمان ومكان .

وتثبت الاشعرية ان المؤمنين يرون الله في العالم الثاني كما جاء في الكتاب : « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة [1] . » وصفات الخالق قائمة بذاته ، لا يقال هي هو ولا غيره . وهو عالم بعلم ، وقادر بقدرة ، وحي بحياة ، ومريد بارادة ، ومتكلم بكلام ، وسميع بسمع ، وبصير ببصر [2] . اما فيما يتعلق بالقرآن والكتب السماوية الاخرى فالاشعرية تعتقد انه معنى واحد قائم بذات الرب ، وهو صفة قديمة ازلية ، ليس بحرف ولا صوت ، ولا ينقسم ، وليس له ابعاض ولا اجزاء ، وهو عين الامر وعين النهي ، وعين الخبر ، وهو عين التوراة والانجيل والقرآن ، فاذا عُبِّر عن معناه بالعربية كان قرآناً ، وان عبر عنه بالعبرانية كان توراة ، وان عبر عنه بالسريانية كان انجيلاً . والمعنى واحد .

---

١ الشهرستاني ج ١ ، ص ١٠٦ .

٢ الشهرستاني ج ١ ، ص ٩٩ .

وهذه الالفاظ عبارة عنه ، وهي خلق من المخلوقات [١] .

الله والخلق

تعتقد ان جميع افعال العباد مخلوقة : جعلها الله في الفاعلين لها ، وانه لا يكون في الارض من خير او شر الا ما شاء ، وان الاشياء تكون بمشيئته ، ولا يستطيع احد ان يفعل شيئاً قبل ان يفعله ، او يقدر احد على ان يخرج من علم الله ، وان يفعل ما علم الله انه لا يفعله . واقرت ان الخالق هو الله وحده ، وان سيئات العباد هو الذي يفعلها . وفّق المؤمنين لطاعته ، وخذل الكافرين ، ولم يلطف بهم ، وما اصلحهم ، وما هداهم ، ولو اصلحهم لكانوا صالحين [٢] .

والخالق هو المالك لجميع خلقه ، يفعل ما يشاء ، ويحكم بما يريد ، فلو ادخل الخلائق جميعهم الجنة لم يكن حيفاً ، ولو ادخلهم النار لم يكن جوراً ، اذ الظلم هو التصرف بما لا يملكه المتصرف. او وضع الشيء في غير موضعه [٣] ، لذلك لا يتصور منه ظلم ، ولا

---

١ ابن قيم الجوزية : مختصر الصواعق المرسله على الجهمية والمعطله ج ٢ ، ص ٢٩١ .

٢ الاشعري : كتاب مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين ج ٢ ، ص ٢٩٠ — ٢٩٧ .

٣ اصاب احد الجبريين غلامه يغازل جاريته فقال له : ما هذا ويحك ؟

ينسب اليه جور . هو قادر على مجازاة العبيد ثواباً وعقاباً ، وقادر على الافضال عليهم تكرماً وتفضلاً . والثواب والتفضل والنعيم واللطف كله فضل منه . والعقاب والعذاب كله عدل لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون [1].

ولا تستند السنَّة في اثبات نظريتها الى البرهان وحده ، بل الى آيات قرآنية ايضاً ، تنثرها في حديثها . فمن النصوص قوله : « هل من خالق غير الله » وقوله « هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه . » وهذا ايجاب يثبت ان الله وحده هو الذي خلق [2] . اما البراهين الجدلية فعديدة ، منها ان الخلق هو احداث جواهر واعراض ، ولا شك انه لا يفعل الجواهر احد سوى الله . فلم تبق الا الاعراض ، فلو كان الله خالقاً لبعض الاعراض والناس خالقين للبعض الآخر لكانوا شركاءه في الخلق ولكانوا قد خلقوا كخلقه ، وهو تكذيب للآيات [3] .

فقال : كذا قضاء الله ! فقال له : انت حر لعلمك بالقضاء والقدر . وزوجه بالجارية . (ابن النديم : الفهرست ص ٢٥٦).

١ الشهرستاني ج ١ ، ص ١٠٧ — ١٠٨.

٢ ابن حزم ج ٣ ، ص ٣٣ .

٣ اليك هذا الحوار الذي يعمد اليه السنيون في تخطيء المعتزلة . فانهم يسألونهم : هل الله الله العالم ورب كل شيء ام لا ؟

فان اجابوا : نعم ، سئلوا : عموماً ام خصوصاً ؟ فان قالوا : بل عموماً ،

غير ان هناك سؤالا يمكن طرحه على الاشعري ، فكيف يجيب عنه ، وهو : أيجوز ، عقلياً ، للخالق ان يعاقب على عمل هو الذي دفع اليه ، بل هو الذي قام به ؟

يحاول الاشعري ان يجيب عن هذا السؤال بقوله ان الاعمال التي تصدر عن الانسان على نوعين : افعال لا ارادية كالرعدة والرعشة ، وحركات ارادية اختيارية . والحركات الاختيارية حاصلة بحيث ان القدرة تكون متوقفة على اختيار القادر . فالاعمال الصادرة عن الفرد تكون خلقاً من الله وكسباً من الانسان [1] .

وهل كلامه يعني شيئاً غير ان هذا الانسان هو الذي يريد ويختار ، وان الله هو الذي يفعل وينفذ العمل ؟ نكاد نلمس في فكرته هذه تناقضاً صريحاً بينها وبين رأي السنّة العامة . ولكنه حاول ان يتوصل الى رأي متوسط ليوفق بين

صدقوا ولزمهم ترك قولهم ، لانه من المحال ان يكون الهاً لما لم يخلق ، وان قالوا : خصوصاً ، قيل لهم : ففي العالم اذاً ما ليس الله الهاً له ، وان كان هذا فان من قال : ان الله رب العالمين ، كاذب ، وكان من قال : ان الله ليس الهاً للعالمين ، صادقاً . وهذا خروج عن الاسلام وتكذيب للكتاب . (ابن حزم ج ٣ ، ص ٣٦) .

١ الشهرستاني ج ١ ، ص ١٠١ — ١٠٢ .

هذه والمعتزلة .

نفي الاسباب

استتبع هذا الرأي برأي آخر مثبط لهمم الباحثين ، قاضٍ على تحقيق الدارسين ، ينكر كل علاقة بين السبب المباشر والمسبب . فالحوادث الطبيعية التي نراها امامنا لا يتبع بعضها بعضاً ، ولا يتعلق احدها بالآخر تعلق الالزام والضرورة ، بل تحدث بغير نظام عالمي مقرر ، ونواميس طبيعية او كيمائية او فلكية . فليس للعلة المباشرة اثر ملزم في حدوث المعلول . فالنار ليست مثلاً هي التي تسبب الحرارة او الحريق ، والثلج ليس هو الذي يسبب البرودة وانخفاض الحرارة ، وليست الافعى تلدغ وتقتل ، ولا ترتفع الشمس من المشرق كل صباح وتغيب في المغرب كل مساء حسب قانون عام لا يتغير ويؤثر في سرعتها وانحرافها ، فكلها علل واسباب لغوية ترادف « العلامات » . فالله قد يجعل في احد الايام النار باردة ، والثلج محرقاً ، والشمس تشرق من حيث تأفل ، لان السبب الحقيقي لكل هذه الظواهر هو الله . وذهبت جماعة من غلاتهم الى ان الكون في انقلاب مستمر وان الاشياء التي نراها الآن ونحكم عليها انها موجودة ، وان لها شكلاً معيناً ، لم تكن بذاتها منذ لحظة ، ولن تكون بعد قليل ، لان جواهرها وصورها تتغير . فنتج

عن هذا الرأي اننا لا نقدر ان نتوصل الى معرفة حاسمة لان الاشياء والمخلوقات التي ندرسها وتكوّن معرفتنا ، في انقلاب مستمر . ونحن اذاً مدفوعون الى الشك بمعرفتنا ومعرفة الآخرين .

كان لا بد ان يحمل على ظاهر هذا المذهب كثيرون من النقاد معتمدين على الحواس والاختبارات التي تثبت تلاحق الحوادث وتلاصقها وسببية بعضها لبعض . فحاول بعض علماء الكلام ان يوضحوه ، وان يخففوا من غلو التعبير بعض الشيء ويسلموا ان الحوادث الكونية تجري حسب قوانين وهمية . فالله « اجرى العادة » ان يحدث الحادث (ا) بعد الحادث (ب) فزعم العلماء ان (ا) هو سبب (ب) . يولد الحرارة كلما اشتعلت النار ، والبرودة عند وجود الثلج . فكما ان الخليفة مثلاً تعوّد ان يخرج في اسواق عاصمته على ظهر جواد ، حتى اصبح الناس لا يقدرون ان يتخيلوه الا على هذه الهيئة ، هكذا الله « اجرى العادة » ان يوجد الحوادث مترافقة حتى كاد العلماء يظنون ان بعضها سبب لبعض . واصروا على اعتقادهم ان الله قد يفصل يوماً بين تلاحق هذه الحوادث التي ندعوها نحن بالعلل والمعلولات ، كما ان الخليفة قد يخرج في اسواق مدينته راكباً على ظهر حمار . فالسنن الالهية وحدها تؤوّل ارتباط الحوادث ببعضها .

ومن الجلي ان السبب الذي دفعهم الى مثل هذا القول هو تحفظهم لتأويل المعجزات والعجائب التي تتم دون واسطة الاسباب المباشرة . فان النبي او الرسول او الولي عندما يشفي العميان من عماهم دون ان يستعمل العقاقير والمبضع التي تؤلف في نظر العالم السبب المباشر ، يكون الخالق قد غير سنّته ، وجعل الحادث يتم دون مرافقته لما كان يحدث معه بالزمان والمكان . واما اذا جعلنا هذا التلاحق واجباً ، تنهار الاسس التي يقوم عليها الدين ، اي المعجزات .

مصير مرتكب الكبائر

عرضنا لهذه النقطة في مقاطع عديدة من البحث ، ولكننا لم نذكر بجلاء اهميتها التاريخية ، مع انها كانت في نظر اكثرية المؤرخين العرب السبب في نشوء الاعتزال . والواقع ان تقرير حل لها ، له اثر بيّن ليس في مصير المسلم بعد الموت فحسب ، بل في حياته الدنيا ، له نتائج حيوية خطيرة من الوجهتين العملية والسياسية . ذلك انه لو سلمنا بمذهب الخوارج في اعتبار مرتكب الكبائر كافراً ، لكانت النتيجة ان يعتبر خارجاً على الامة الاسلامية ، وان يعتبر زواجه بؤمنة باطلاً ، وان لا تقبل له شهادة ، وان يستباح دمه وماله . ثم من الناحية السياسية يصبح خلفاء بني امية وعمالهم عاصين لله ، ويجب على كل مسلم حقاً ان يقوم عليهم ويحاربهم . وعلى

العكس من ذلك يسقط هذا التشدد وذاك التحريض على الثورة ضرورة اذا اخذنا بمذهب اهل السنَّة في ان الفاسق مع ذلك مؤمن، وله من اجل ذلك ان يتمتع بكل الحقوق التي لكل عضو في الامة الاسلامية [١].

تذهب الاشعرية الى ان الايمان هو التصديق بالقلب، واما القول باللسان والعمل بالفرائض ففروعه. فمن صدّق بالقلب اي اقرّ بوحدانية الله، واعترف بالرسل تصديقاً لهم فيما جاؤوا به، صح ايمانه، حتى لو مات في الحال كان مؤمناً ناجياً. ولا يخرج من الايمان الا بانكار شيء من ذلك. وصاحب الكبيرة اذا خرج من الدنيا من غير توبة يكون حكمه لله: اما ان يغفر له برحمته او ان يشفع به النبي اذ قال: شفاعتي لاهل الكبائر من امتي [٢].

الغزالي والباطنية

بلغت السنَّة المتفلسفة اوج قوتها في مدرسة نيسابور ايام امام الحَرَمَيْن عبدِ الملك ابي المعالي الجُوَيْني. فقد كان الامام يعتنقها ويدرّسها في حلقته.

---

١ كرلو الفونسو نلينو: بحوث في المعتزلة. من كتاب جمعه عبد الرحمن بدوي: التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية. القاهرة، ١٩٤٠. مكتبة النهضة المصرية، ص ١٨٠ ـ ١٨١.

٢ الشهرستاني ج ١، ص ١٠٧.

وكانت المدارس النظامية الاخرى في بغداد وبلخ وسواها تدرّس مذهب السنّة على انه المذهب الذي يطمئن اليه الخلفاء العباسيون والسلاطين السلجوقيون . وقد عمد الوزير نظام الملك [١] الى هذه الطريقة يحاول بها ان يوقف انتشار المذهبين : الباطني والفلسفي في الطبقات الشعبية ، ولاسيما الاول بعد ان انتقل اشياعه من عهد الجدل والكلام الى الثورة العلنية ، والاعتصام بالقلاع في اعالي الجبال . فكان لا بد من ان يظهر في العالم الاسلامي الشرقي علماء يتسلحون بالسلاح الجديد ، يشدون ازر الخلافة السنية ، ويناضلون الفاطميين ودعاتهم المنتشرين في كل مكان في الشرق ، العاملين في قرض الاسس التي يقوم عليها السلطان ، وذلك لبسط النفوذ الفاطمي المصري على ما بقي للعباسيين من شبه سلطان .

افضل من تخرج في تلك المدارس وأحدهم ذكاء ، وابرعهم استعمالاً للجدل الفلسفي ، الامام ابو حامد الغزالي . انفق ما يزيد على عشر سنوات في حرب عنيفة لا هوادة فيها ولا سلام ضد الباطنية والفلاسفة بين عام ٤٧٨ هـ — وفاة استاذه امام الحرمين

---

١ ولد ابو علي الحسن بن علي الملقب بنظام الملك في نواحي طوس يوم الجمعة في ٢١ ذي القعدة من عام ٤٠٨ هـ . اشتغل اول الامر بالحديث

وعام ٤٨٨ هـ — مرضه النفساني — . ولعله عاد الى حربه هذه في عهد الاهتداء ، ولكنه لم يغال في استعمال المقدمات المنطقية وانما قام جدله على الآيات القرآنية .

امضى الغزالي قسماً كبيراً من اعوامه المنتجة وهو يحارب على ثلاث جبهات : يحارب الباطنية ويرد عليها ، ويفنّد اخطاءها ويبين لها طريق الصواب ، ويهاجم الفلاسفة ، وقد كانوا قبله في امان ، لا يجرؤ احد من غير فئتهم على الرد عليهم ، لان تفقههم بالعلوم اليونانية من لسانية والهية وطبية وطبيعية وكياوية وفلكية ورياضية كان يحول دون عامة المسلمين ومهاجمتهم. وكان الغزالي في الوقت ذاته يحاول « الجام العوام عن علم الكلام » ليعيدهم الى الايمان العاطفي . كل ذلك حاول القيام به ، ووضع فيه الكتب والرسائل . وكل ذلك ازهر واثمر . وكان لنجاحه دَوِي في العالم الاسلامي اجمع في عصره وبعد عصره .

والفقه ، ثم اتصل بالسلاجقة ، فاستخدمه السلطان الب ارسلان في مهام الحكم . وبقي في تدبير اموره مدة عشر سنوات . فلما مات الب ارسلان انتقل الى خدمة ابنه ملكشاه ، وصار الامر كله لنظام الملك . واقام على هذه الحالة مدة عشرين سنة ، وهو اول من انشأ المدارس فاقتدى به الناس . وشرع في عمارة مدرسة في بغداد سنة ٤٥٧ هـ . توفي ليلة السبت في العاشر من شهر رمضان سنة ٤٨٥ هـ ، قتله احد الفدائيين بالقرب من نهاوند . (راجع ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٤ ، ص ٢٩٣ — ٣٠٥) .

قام اتساع اطلاعه ، وسر نجاحه ، على ما فُطر عليه من حب المعرفة والتفحص عن كل ما يقع تحت حواسه من المحسوسات ، وما يخطر في ذهنه من المعقولات . فقد قال عن نفسه في « المنقذ من الضلال » : ولم ازل في عنفوان شبابي ، منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين الى الآن ، وقد اناف السن على الخمسين ، اقتحم لجة هذا البحر العميق ، واخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، واتوغل في كل مظلمة ، واتهجم على كل مشكلة ، واتقحم كل ورطة ، واتفحص عن عقيدة كل فرقة ، واتكشف اسرار مذهب كل طائفة ، لاميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لا اغادر باطنياً الا واحب ان اطلع على بطانته ، ولا ظاهرياً الا واريد ان اعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفياً الا واقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً الا واجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفياً الا واحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبداً الا واترصد ما يرجع اليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطلا الا واتجسس وراءه للتنبه لاسباب جرأته في تعطيله وزندقته [1] .

---

١ الغزالي : المنقذ من الضلال ص ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٧ ، طبعة مكتب

كانت ثورة الباطنيـة ، او الاسماعيلية ، تقلق بال نظـام الملك . تتسع كل يوم ، وتزداد خطراً على الملك . ويتألب الناس حول الدعـاة ، ولاسيما الحسن بن الصباح في « قلعة الموت » حيث لا يقوى عليهم جند ، ولا يطالهم عقاب . والدعوة منتشرة في جميع البيئات الشعبية ، يبثها دعاة رسميون ، تخرجـوا من الجامع الفـاطمي ، وارسلوا خصيصاً الى حيث تكثر الشيعة ، لايقاظ نزعتهم الدينية ، واثـارة شعور العداء في صدرهم ضد العباسيين والسلاجقـة ، وتحويـل عطفهم الى الفاطميين الذين يدينون بمذهبهم من حيث تفضيل آل البيت والتسليم — ظاهراً — بكل ما تسلم به الشيعة . فطلب نظام الملك من الامام الغزالي ان يردّ عليهم ، ويفند اقوالهم ، بعد ان وجـه ضدهم الحملات العسكرية [١] . فوضع الامام في مجادلتهم المستظهري [٢] ثم حجة الحق ، ومفصل الخلاف ، والدرج او الجـداول ، ثم القسطاس

النشر العربي ، دمشق ١٩٣٤ . مهد له بمقدمة عن الغزالي الدكتوران جميل صليبا وكامل عياد .

١ يشير في « المنقذ » ص ١٠٨ الى انه تسلم امراً جازماً من حضرة الخلافة بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم ، فبدأ بطلب كتبهم وجمع مقالاتهم .

٢ ويسمى ايضـاً « فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية » ، نشر منه كولدزيهر قسماً ، ومهد له ببحث طويل اصدره في ليدن ، سنة ١٩٠٦ .

المستقيم [١] ، وهو الاخير من مؤلفاتـه التي تتعلق بهذه الفئة قبل المقطع الذي خصه بها في « المنقذ من الضلال » .

يبين لنا « القسطاس المستقيم » الطريقة التي كان يتبعها ابو حامد في مجادلة الباطنيين ، وتوضيح اخطائهم ، وتبيين الطريق الذي عليهم ان يتبعوه . موضوعه : السبيل الى ادراك حقيقة المعرفة . والبـاعث لتأليفه مناظرة جرت مع احد الباطنية ، فهو يخاطبه فيه على مقدار استعداده العقلي .

يطلق احياناً على الباطنية اسم اهل التعليم [٢] . وهم ، على ما يبدو من الكتاب ، كانوا يبادئون الناس بالاسئلة والجدل لنشر دعوتهم ، وضم الناس الى صفوفهم [٣] . وقد صادف الغزالي في احدى رحلاته احدهم فدار بينهما جدل طويل ، ذكره بتفصيله ، فاستوعب الكتاب بكامله [٣] . غير انه لم يشر فيه الى شيء من التفاصيل المكانية والتاريخية . ولم يذكر اسماً او امراً يتعلق بطرق الحياة

---

١ طبع مصطفى القباني الدمشقي ، يقع في ١١٢ صفحة من القطـع المتوسط ، وادرجه الدكتور احمد فريد رفاعي في الجزء الثاني من كتابه « الغزالي » من ص ١٩٦ الى ص ٣٠٥ ، مصر . ونحن نعتمـد في اشاراتنا على طبعة القباني .

٢ ص ١٤ .

٣ تعود المفكرون المسلمون ، عندمـا يريدون ان يوضحوا فكرة من

وانما اكتفى بان جعل من رسالته هذه محاورة بينه وبين خصمه على طريقة السؤال والجواب، والهجوم والدفاع [١].

كان موقف الباطني منذ اول الامر شبيهاً بموقف السنّة المتكلمة من الفلاسفة، يأخذ عليه وعلى الناس اجمعين الاختلاف والالتباس في الاقوال، لانهم يستسلمون الى ميزان الرأي والقياس في الوصول الى الحقائق. وهذا الميزان اورث الخلاف

الفكر، او يؤيدوا مذهباً من المذاهب، او يذكروا لهم رأياً خاصاً ان يجاذبوه تلميذاً حقيقياً او خيالياً تارة، وتارة سائلاً يطرح عليهم سؤالاً، او يرسل اليهم كتاباً، فيجيبونه بكلام يطول احياناً في عرض ما يريدون حتى يستوعب رسالة كبيرة او كتاباً متوسطاً. كما نرى مثلاً عند الامام نفسه، في كتابه هذا، وفي المنقذ من الضلال، وايها الولد، وعند المعري في رسالة الغفران، وعند ابن طفيل في حي بن يقظان وسواهم. وهي براعة كتابية اكثر منها حادثة واقعية.

١ الاشارات النادرة التي تلاحظ في الكتاب هي ان الباطني الذي يجادله ابو حامد من دامغان (بلد كبير بين الري ونيسابور كثير الفواكه) وان الباطنية كانت تعتقد ان الحسن بن الصباح هو الامام الحسن السيرة والسريرة، وهو شاهد صدق، وكان عهدئذ لا يزال مستولياً على «الموت». اشار اليه الباطني عرضاً في استشهاده على وجود الامام المنتظر، او المعلم الغائب (ص ٦٦)، وان لخصم الغزالي رفاقاً في دامغان واصبهان (مدينة عظيمة مشهورة من اعلام المدن، وهي اسم للاقليم باسره) وان لهم هناك سطوة وسلطاناً يطاعون في حكمهم سكان القلاع. (ص ٦٦، ٦٧، ٦٨).

في تقرير كثير من الامور[1]، وينصحه باتباع الامام المعصوم، فيحاول الغزالي ان يبين له ان الامام لا يوصل الى ما يريد من جلاء الحقائق، وانما يوصل اليه القسطاس المستقيم الذي يقوم على الموازين الخمسة المنزلة في كتاب الله[2]، وعلم اسرارها انبياءه اجمعين، ولا سيما الرسول العربي. فمن تعلم من الرسول، ووزن بميزان الله فقد اهتدى، ومن ضلّ عنه الى الرأي والقياس فقد ضلّ وتردّى. ان الموازين التي اصطنعها، اعتمد لها منهج السير من الشك التحليلي الى اليقين الاثباتي، وان كانت لا تختلف من حيث النظم المنطقي كثيراً عن القياسات الكلامية. وبعضها عبارة عن الشكل الثاني من القياس الاستثنائي، وآخر كناية عن الشكل الثالث.

انتهى الجدل بينهما بان سلم الباطني بكل ما قاله الغزالي، وباقتناعه بان ما تذهب اليه الباطنية هو الخطأ والضلال، فلا بدّ من اتباع سبيل السنّة اذا اراد ان يستهدي الى الحق والى الصراط المؤدي الى الخلاص بعقله ونفسه. فرجا منه ان يضمه اليه، ويعلمه ما يزخر في صدره من العلم الصحيح. فامتنع

---

١ ص ١٥

٢ ص ٢٠.

ابو حامد لانه لا يصلح لهذه المهمة قائلا :

« اذهب عني فهذا فراق بيني وبينك . فاني مشغول بتقويم نفسي عن تقويمك ، وبالتعلم من القرآن عن تعليمك ، فلا تراني بعد هذا ولا اراك [١] . »

اما النتيجة التي انتهى اليها الغزالي في نقد الباطنية في « المنقذ من الضلال » فهي ان مذهبهم في التعلم من الامام المعصوم ، وفي صفات هذا الامام هو مذهب لا يمكن ان يثبت امام مهاجمة البرهان الدقيق والمنطق السديد . فعلى السنّة ان تعترف معهم بالحاجة الى المعلم ، وانه لا بد ان يكون المعلم معصوماً ، ولكن معلمنا المعصوم هو النبي محمد . فاذا قالوا هو ميت فنقول فمعلمكم غائب . فاذا قالوا : معلمنا قد علم الدعاة ، وبثهم في البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم ان اختلفوا او اشكل عليهم مشكل ، فنقول : ومعلمنا قد علم الدعاة ، وبثهم في البلاد ، واكمل التعليم ، اذ قال « اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي » . وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا تضر غيبته [٢] . ويشير في بعض الامكنة

---

١ ص ١١٠ .

٢ المنقذ من الضلال ص ١١٠ ـ ١١١ .

من الكتاب نفسه الى ان « اخوان الصفاء » من الباطنيين

موقف الغزالي من الفلاسفة

شعر الغزالي بما تحتوي عليه الفلسفة من الخطر على الدين ، ورأى أن من عني بالرد عليها من علماء الكلام لم يتوصلوا الى نتيجة مرضية ، وذلك لانهم اساؤوا في تفهيمها . فجاؤوا بكلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد [٢] . فشمر عن ساعد الجد والاجتهاد واكب دون استاذ على مؤلفات الفلاسفة يطالعها بنفسه ، ويتفهم معانيها . وهو في الوقت نفسه يتعهد طلبته الثلاثمائة بالتعليم في المدرسة النظامية البغدادية . يدرس الفلسفة ويدرّس

---

١ يقول ان منهم من ادعى شيئاً من علمهم ، فكان حاصل ما ذكره شيئاً من ركيك فلسفة فيثاغورس . وهو المحكي في كتاب « اخوان الصفاء » (ص ١١٩ ، ١٢٠) ، ويشير في مكان آخر (ص ١٠٢ ، ١٠٣) الى كتاب اخوان الصفاء ، فيفهم من اشارته ان له صاحباً . يقول : « . . . لان صاحب كتاب « اخوان الصفاء » اوردها (آيات قرآنية) في كتابه مستشهداً بها مستدرجاً قلوب الحمقى بواسطتها الى باطله . . . » وورد ذكر الكتاب ايضاً في الصفحة ١٠٤ حيث قال : « فان من نظر في كتبهم ككتاب اخوان الصفاء وغيره ، فرأى ما مزجوه بكلامهم من الحكم النبوية والكلمات الصوفية ربما استحسنها وقبلها وحسن اعتقاده فيها ، فيسارع الى قبول باطلهم الممزوج به لحسن ظن حصل فيما رآه واستحسنه ، وذلك نوع استدراج الى الباطل . »

٢ المنقذ ص ٨٢ .

العلوم الشرعية [١] . ثابر على هذا العمل مدة سنتين حتى توصل الى فهم حقيقة مذاهب الفلاسفة ، ولعل ذلك يوافق عام ٤٨٧ هـ . ثم امضى عاماً ثالثاً في الرد على مزاعمهم وتبيين اخطائهم في كتاب « تهافت الفلاسفة » ، انتهى من وضعه كما جاء في احدى المخطوطات في الحادي عشر من محرم سنة ٤٨٨ هـ . (كانون الثاني ١٠٩٥ م) ، وهو الكتاب الذي يقرر فيه موقفه بجلاء من الفلاسفة [٢] . فقد رآهم اصنافاً ورأى علومهم اقساماً . وهم على كثرة اصنافهم تلزمهم وصمة الكفر والالحاد ، وان كان بين القدماء والاواخر تفاوت عظيم في البعد عن الحق والقرب منه [٣] .

التهمة الكبرى التي ينسبها اليهم هي انهم لا يتفقون على رأي واحد ، بل يتناقضون ، ويهدم بعضهم آراء بعض ، حتى ان مقدمهم ارسطو يخالف استاذه افلاطون ، ويلاحظ انه لو كان مذهبهم صحيحاً لكان الاتفاق عليه يشمل الجميع ، كما يحدث مثلاً في العلوم الرياضية . فالاختلاف في الالهيات ناتج عن تقصيرهم دون الوصول الى الحقيقة [٤] . ويرى ان الاختلاف

---

١ المنقذ ص ٨٣ .

٢ R. P. Bouyges : Algazel . Tahafot al Falasifat . 1927 . (Bibliotheca Arabica Scholasticorum T.II.)

٣ المنقذ ص ٨٣ .

٤ تهافت الفلاسفة ص ٨ — ٩ .

بين الفلاسفة وغيرهم من الفرق لا يتعدى ثلاثة انواع : اما في تحديد الالفاظ ، او ما لا يصدم مذهبهم فيه اصلا من اصول الدين ، كبعض الآراء الفلكية والعلوم الهندسية والحسابية ، وهذه ليست محلا لان يجادل الفلاسفة فيها [١] ، او ان يتعلق النزاع باصل من اصول الدين ، كالقول في حدوث العالم ، وصفات الصانع ، وبيان حشر الاجساد والابدان . وهذا الفن هو المتعلق بما وراء الطبيعة ، وفيه ينبغي ان يتعرض لاظهار فساد مذهبهم دون ما عداه [٢] .

يستعمل الغزالي في الرد عليهم جميع ما توصلت اليه الفرق الاسلامية من حجج وبراهين ، لانه يعتقد ان الخطر مداهم ، وعند الشدائد تذهب الاحقاد [٣] . يورد الحجج الاسلامية بعبارات المنطقيين ، ويصبها في قوالبهم ، ويقتفي آثارهم لفظاً ، ويناظرهم بلغتهم ، ليوضح انهم لم يفوا في براهينهم بالشروط التي وصفوها

---

١ يرى ان آراءهم في السياسة قد اخذوها من كتب الله المنزلة على الانبياء ، ومن الحكم المأثورة عن السلف ، والآراء الخلقية ترجع الى حصر صفات النفس واخلاقها ، وذكر اجناسها وانواعها ، وكيفية معالجتها ومجاهدتها ، وقد اخذوها من كلام الصوفية . (المنقذ ص ٩٨) .

٢ التهافت ص ١٣ .

٣ ص ١٤ .

في كتاب القياس[١]. يرى ان مذهبهم يناقض الشريعة الاسلامية في عشرين مسألة ، تبدأ بقولهم في ازلية العالم ، وتنتهي بقولهم في انكار بعث الاجساد ، مع التلذذ والتألم في الجنة والنار باللذات والآلام الجسمانية[٢]. يكفرهم في ثلاث منها وهي قولهم : بقدم العالم وازليته ، وان الله يعلم الكليات دون الجزئيات ، وان الاجساد لا تحشر ، وان المثاب والمعاقب هي الارواح المجردة ، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية .

فهذه المسائل الثلاث لا تلائم الاسلام . ومُعتقدُها يكذب الانبياء والكتب المنزلة . لذلك يعمد الغزالي الى براهينهم فيها ، فيبسطها امام القارىء ، ويرد عليها واحداً واحداً ، حتى ينتهي الى النتيجة التي يقصدها ، وهي ان الفلاسفة قد اخطأوا في تبيين ما يريدون ، وقصروا في شروط براهينهم .

ازلية العالم وابديته

استقر رأي الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين على القول بقدم العالم ، وانه لم يزل موجوداً مع الله ، ومعلولاً له غير متأخر عنه بالزمان ، وان تقدم الخالق عليه كتقدم العلة على المعلول ، وهو تقدم بالذات

---

١ ص ١٦ .

٢ ص ١٩ — ٢٠ .

والرتبة لا بالزمان [١] ، واشهر ادلتهم على ذلك ثلاثة :

الدليل الاول : يقول الفلاسفة انه يستحيل صدور حادث من قديم مطلقاً ، لأنّا اذا فرضنا القديم ولم يصدر منه العالم مثلاً ، فيلزم انه لم يكن للوجود مرجح ، لان وجود العالم ممكن امكاناً صرفاً . فاذا حدث بعد ذلك فلانه قد وجد «مرجح» رجح كفة الوجود على عدمه . فمن محدث ذلك المرجح؟ ولِمَ حدث الآن ، ولم يحدث من قبل ؟ انتقلت الصعوبة الى المسألة الجديدة ، دون ان يحل منها امر ، لذلك قال الفلاسفة : ان احوال القديم ، اذا كانت متشابهة ، فاما ان لا يوجد عنه شيء قط ، واما ان يوجد على الدوام [٢] .

رد الغزالي عليه : يرد على حجة الفلاسفة انه بوسع الخالق احداث العالم في زمان ، دون ان يطرأ على ذاته اي تعديل او تأثر ، ذلك بان يحدثه بارادة قديمة تقضي وجوده في الوقت الذي وجد فيه ، واستمرار العدم الى الغاية التي استمر اليها ،

---

١ تهافت الفلاسفة ص ٢١ .

٢ يعني : اذا سلمنا ان الله «القديم» لا تتعدل ذاته ، ولا يطرأ عليها تغيير ، او تطور ، بل هو ازلي في صفاته ، لوجب ان يوجد العالم منذ الازل . واذا لم يوجده وقتئذ فلا يمكن ايجاده في اي وقت آخر ، لان ايجاده يوجب تعديلاً في ذات الخالق .

وابتداء الوجود من حيث ابتدأ [١].

الدليل الثاني : يقول الفلاسفة ان من يذهب الى ان الله متقدم على العالم يقصد احد امرين : الاول تقدم بالذات كتقدم العلة على المعلول ، مثل تقدم حركة الشخص على حركة الظل التابع له ، وحركة اليد على حركة الخاتم ، فانها متساوية في الزمان [٢] ، فان اريد هذا التقدم لزم ان يكونا حادثين ، او قديمين ، واستحال ان يكون احدهما قديماً والآخر حادثاً ، والثاني تقدم بالزمان وعندئذ يجب التسليم ان قبل وجود العالم والزمان زماناً آخر كان العالم فيه معدوماً . وهذا الزمان الاولي غير متناهٍ من جهة الخالق ، ومتناه من جهة ابتداء الزمان العالمي ، وهذا محال . اذاً وجب قدم الزمان ، وهو عبارة عن قدر الحركة ، ووجب قدم الحركة ، ووجب قدم المتحرك الذي يدوم الزمان بدوام حركته [٣].

رد الغزالي عليه : يرد عليهم بقوله ان الزمان حادث مخلوق

---

١ تهافت الفلاسفة ص ٢٦ . يرد عليه ابن رشد في تهافت التهافت بقوله : ان جاز فصل الارادة عن العمل فانه لا يجوز فصل العلة عن المعلول ، لذلك لم تحل القضية .

٢ ص ٥٢ .

٣ التهافت ص ٥٢ .

وليس قبله زمان اصلاً . وقد كان الله ولا عالم ، ثم كان ومعه عالم . وليس من ضرورة تقدير زمن اولي يفصل بين الفترتين ، وان كان الوهم لا يسكت عن تقدير ثالث ، فلا التفات الى اغاليط الاوهام [١] .

الدليل الثالث : ان المادة تسبق الحادث الذي يقوم بها ، اذ لا يمكنه الاستغناء عنها . فالمادة ليست حادثة ، وانما الحادث الصور والاعراض ، والكيفيات على المواد . وذلك لان الحادث قبل ان يحدث يكون ممكن الوجود . وامكان الوجود وصف اضافي لا قوام له بنفسه . فلا بد له من محل يضاف اليه ، ولا محل الا المادة ، فيضاف اليها ، كما نقول : هذه المادة قابلة للحرارة والبرودة او السواد والبياض والسكون ، اي ممكن لها حدوث هذه الكيفيات ، فيكون الامكان وصفاً للمادة . فكل حادث اذاً سبقته مادة ، والمادة الاولى قديمة [٢] .

رد الغزالي : يقول ان الامكان يرجع الى قضاء العقل . وهو لا يحتاج الى موجود حتى يجعل له وصفاً ، والا لاقتضى امتناع الوجود — وهو ايضاً من قضاء العقل — موجوداً يضاف اليه .

---

١ التهافت ص ٥٣ .

٢ ص ٧٠ .

ويدل على ذلك ان السواد والبياض يقضي العقل فيهما ، قبل وجودهما بكونهما ممكنين . وهما ليست لهما مادة قديمة خاصة ينسبان اليها ، وانما المادة التي تحملهما هي ذاتها ممكنة الوجود . ونفوس الآدميين هي في اعتقاد الفلاسفة جواهر قائمة بذاتها ليست بجسم ولا مادة . وهي حادثة كما يقول ابن سينا ، وممكنة الوجود قبل حدوثها وليس لها ذات ، ولا مادة تنسب اليها [1] .

ابدية العالم : يذهب الحكماء الى ان العالم ، كما انه قديم ازلي لا بداية له ، فهو ابدي لا نهاية له ، ولا يتصور فساده وفناؤه . وادلتهم السابقة في الازلية جارية في الابدية . فيقولون ان العلة اذا لم تتغير ، لم يتغير المعلول . ولهم غيرها دليل لجالينوس يذهب فيه الى انه لو كانت الشمس مثلاً — وهي جزء من العالم — تقبل الانعدام لظهر فيها ذبول في مدة مديدة ، والارصاد الدالة على مقدارها منذ آلاف السنين لا تدل على تغير ، فلما لم تذبل في هذه الآماد الطويلة ، دلّ ذلك على انها لا تفسد ابداً .

يأخذ الغزالي على جالينوس شكل البرهان ، ويقول انه غير صحيح ، لانه لا يفي بشروط البرهان الحقيقي ، فالعالم اليوناني يبين ان لا فساد الا بالذبول ، ولا يبعد ان يفسد الشيء

---

١ ص ٢١ ، ٧٢ .

بغتة ، وهو على حال كماله . ثم لو سلمنا انه لا فساد الا بالذبول فمن يعرف انه لا يعتريها الذبول ؟ ان الارصاد لا تدرك المقادير الا بالتقريب . فلو نقص من الشمس مقدار جبل مثلاً ، لكان لا يتبين الحس فعلها في الذبول ، كما ان الياقوت مركب من عناصر قابلة للفساد . ثم لو وضعت ياقوتة مائة سنة لم يكن نقصها محسوساً . فلعل ما ينقص من الشمس في مدة تاريخ الارصاد كنسبة ما ينقص من الياقوتة في مئة سنة ، وذلك لا يظهر للحس . كل هذا يدل حسب رأيه على فساد دليل جالينوس [1] .

معرفة الخالق للكليات

رأي الفلاسفة : ينحصر الرأي الذي يفصله بقول ابن سينا ان الله يعلم الاشياء علماً كلياً لا يدخل تحت الزمان ، ولا يختلف بالماضي والمستقبل والآن . ومع ذلك لا يغرب عن علمه مثقال ذرة مما في السموات والارض . فالشمس مثلاً تنكسف بعد ان لم تكن منكسفة ، ثم تنجلي فتحصل لها ثلاثة احوال : الكسوف المعدوم المنتظر ، ووجود الكسوف ، وانعدام الكسوف بعد ان كان . ولهذه الحالات الثلاث علوم مختلفة ، وتعاقبها على المحل يوجب تغير ذات

---

١ راجع ص ٨٢ – ٨٣ .

العالم . فانه لو علم بعد الانجلاء ان الكسوف موجود الآن كان ذلك جهلاً لا علماً ، ولو علم عند وجوده انه معدوم كان جهلاً . وتعاقب الحالات الثلاث على الله يوجب اذاً تغيراً في ذاته . والتغير في ذات الخالق محال[1] . ومع ذلك فان ابن سينا ومن يقول قوله يذهبون الى انه يعلم الكسوف وجميع صفاته وعوارضه ، ولكن علماً يتصف به في الازل ولا يختلف . مثل ان يعلم مثلاً ان الشمس موجودة ، وان القمر موجود ، لانهما حصلا منه بواسطة ملائكته التي سموها باصطلاحهم عقولاً مجردة ، ويعلم انهما متحركان حركات دورية ، ويعلم ان بين فلكيهما تقاطعاً على نقطتين هما الرأس والذنب ، وانهما يجتمعان في بعض الاحوال في العقدتين ، فتنكسف الشمس ، اي يحول جرم القمر بينها وبين اعين الناظرين[2] ، وان ذلك يتم في مدة معينة ، وهكذا الى جميع احوال الكسوف وعوارضه . ولكن علمه بهذا قبل الكسوف ، وحالة الكسوف ، وبعد الانجلاء على وتيرة واحدة ، لا يختلف ، ولا يوجب تغيراً في ذاته . فمعرفة الله بالمعقولات الجزئية تكون على نحو كلي ، لانه علة العلل المباشرة . ان كل

---

١ ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

٢ ص ٢٢٥ .

ما تجب في تعريفه الاضافة الى الزمان او المادة لا يعرفه . فهو لا يعلم عوارض زيد وعمرو وخالد ، وانما يعلم الانسان المطلق بعلم كلي ، ويعرف عوارضه وخواصه . فاما ما تميز به زيد عن عمرو فليس له به علم . وهكذا يكاد يسقط العقاب والثواب ، لان الاعمال الانسانية معلقة بالزمان والمكان ، متشعبة تشعب الافراد . ويجهل اسماء الانبياء ، مع انه يعرف انه عندما تكثر الشرور ، وتعم الآثام ، يظهر نبي يدعو قومه الى الصراط المستقيم .

رد الغزالي : يرد عليهم بان علم الله بالكسوف وعدمه واحد . والعلم قبل وجوده علم بانه سيكون ، وهو بعينه عند الوجود علم بالكون ، وهو بعينه بعد الانجلاء علم بالانقضاء . وان هذه الاختلافات ترجع الى اضافات توجب تبدلاً في ذات العلم ، ولا توجب تغيراً في ذات العالم . وان ذلك ينزل منزلة الاضافة المحضة . فان الشخص الواحد يكون على يمينك ، ثم يرجع الى قدامك ، ثم الى شمالك ، فتتعاقب الاضافات ، والمتغير ذلك الشخص المنتقل دونك . وهكذا ينبغي ان يفهم الحال في علم الله . فهو يسلم ان الله يعلم الاشياء بعلم واحد [1] في

---

١ التهافت ص ٢٣١ — ٢٣٢ .

الازل والابد والحال ، ويختم رده بانه متفق مع الفلاسفة على نفي التغير عن الله ، غير انه يثبت معرفته للكليات والجزئيات معاً .

الحشر الروحاني

رأي الفلاسفة : يعتقد الفارابي وابن سينا بنوع خاص ان النفس تبقى بعد الموت بقاء سرمدياً : اما في لذة لا يحيط بها وصف لعظمها ، او في الم لا يحيط به وصف لعظمه . وقد يكون الالم مخلداً ، او ينقضي على طول الزمان . وتتفاوت درجات الناس في الالم واللذة تفاوتاً غير محصور كما يتفاوتون في المراتب الدنيوية [1] . واللذة الاخروية هي لذة روحانية مثلت في كتب الانبياء بصور حسية لتفهمها العامة . فلو مثلنا لهم الجنة باللذات العقلية لما فهموها ، لانهم لم يدركوا جميع المعقولات ، ولم يقفوا على اسرار الكائنات ، لذلك قال الله على لسان النبي : « اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر [2] . »

ويؤكدون استحالة بعث الاجساد بان بدن الميت ينحل

---

١ يعتقد الفارابي ان النفوس الفاضلة بعد مغادرتها الجسد تؤلف جماعات متفرقة ، كل واحدة منها اقدمت على مقدار واحد من الحسنات . فللعبادة درجات ومراتب .

٢ التهافت ص ٣٤٩ .

تراباً ، وتأكله الديدان والطيور ويستحيل دماً وبخاراً وهواء وتراباً . واذا تأملنا التربة عرفنا انها من جثث الموتى ، تتربت وزرع فيها ، وغرس ، وصارت حباً وفاكهة ، وتناولتها الدواب فصارت لحماً ، وتناولناها فعادت بدناً لنا . فما من مادة يشار اليها الا وكانت بدناً لاناس كثيرين ، واستحالت وصارت تراباً ، ثم نباتاً ، ثم لحماً ، ثم حيواناً ، فالنفوس غير متناهية تربي بكثير على الاجسام . فاذا تم الحشر الجسماني فاي الناس يبعث ؟ وماذا يفعل بالنفوس التي انضمت اجسامها الى اجسام اخرى والفت جزءاً منها ؟

رد الغزالي : يقول ان القسم الاول لا يخالف الشرع في شيء . فهو لا ينكر ان في الآخرة من اللذات ما هو اعظم من المحسوسات . ولكن السعادة الاخروية تكون جسمانية وروحانية ، فقد اجتمعتا [١] . لان ما ورد في وصف الجنة والنار وتفصيل تلك الاحوال بلغ مبلغاً لا يحتمل التأويل . فلا يبقى الا حمل الكلام على التلبيس ، بتخييل نقيض الحق

١ غير ان الغزالي عاد فقطع بالنعيم الروحاني للخاصة بعد ان انضم الى جماعة المتصوفين . وقد اشار ابن طفيل في مقدمة «حي بن يقظان» الى هذا التحول .

للخلق ، وذلك مما يتقدس عنه منصب النبوة [١] . اما انكار حشر الاجساد فهو يخالف الشريعة لان الخالق يرد الارواح الى اجسام سواء كانت من مادة البدن الاول او من غيره ، فانها هي بذاتها لا ببدنها . اذ يتبدل على جسم الانسان ، من الصغر الى الكبر ، حالات الهزال والسمن ، ويختلف مزاجه ، وهو ذلك الانسان بعينه [٢] . ويكون الاختراع الجديد او حشر الاجسام على طريقة الاستغناء عن الاسباب المباشرة ، او « السنن الالهية » ، كما رأينا عند كلامنا عن السنّة . فعوضاً عن ان يتبع وجود الجسم حالات الجنين ونمائه وولادته وكبره ، يتخطى الخالق بقدرته كل هذه المراحل ليصل الى الغاية ، وهي خلق جسم كامل التركيب . ففي خزانة المقدورات عجائب وغرائب لم يطلع عليها ، ينكرها من يظن ان لا وجود الا لما شاهد [٣] . وورد في بعض الاخبار انه يعم الارض في وقت البعث مطر قطراته تشبه النطف تختلط بالتراب [٤] .

---

١ التهافت ص ٢٥٦ .

٢ يشبه هذا البرهان برهاناً ذكره الرئيس ابن سينا لاثبات وجود النفس في احدى رسائله .

٣ التهافت ص ٣٦٩ .

٤ ص ٣٧١ .

الغزالي وعلم الكلام

لابي حامد رسالة موضوعها « الجام العوام عن علم الكلام »، فصّل فيها حقيقة مذهب السلف في تأويل الآيات التي دار حولها الجدل، وما يجب ان يكون عليه موقف العامة منها. ففي رأيه ان كل من بلغه حديث او آية من هذه الاحاديث والآيات من عوام الخلق عليه سبعة امور: التقديس[١] ثم التصديق[٢]، ثم الاعتراف بالعجز[٣]، ثم السكوت[٤]، ثم الامساك[٥]، ثم الكف[٦]،

---

١ تنزيه الخالق عن الجسمية وتوابعها.

٢ الايمان بما قاله الرسول، وان ما ذكره حق، وانه حق على الوجه الذي قاله واراده.

٣ الاقرار بان معرفة مراده ليست على قدر طاقته، وان ذلك ليس من شأنه وحرفته.

٤ ان لا يسأل عن معناه، ولا يخوض فيه، ويعلم ان سؤاله عنه بدعة، وانه في خوضه فيه مخاطر بدينه، وانه يوشك ان يكفر لو خاض فيه من حيث لا يشعر.

٥ ان لا يتعرض لتلك الالفاظ بالتصريف والتبديل بلغة اخرى والزيادة فيها، والنقصان منها، والجمع والتفريق، بل لا ينطق الا بذلك اللفظ، وعلى ذلك الوجه من الايراد والاعراب والتصريف والصيغة.

٦ ان يكف باطنه عن البحث عنه والتفكير به. ويلاحظ الغزالي ان الكف الباطني عن التفكير بهذه الامور صعب، فيوجد طريقة لصرف العامة عنها، وهي ان يشغل المرء نفسه بعبادة الله وبالصلاة. فان

ثم التسليم لاهل المعرفة [١] .

وان يكتفي بادلة القرآن فيما يتعلق بالخالق ، لان هذه الادلة مثل الغذاء ينتفع به كل انسان ، وادلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ، ويستضر به الاكثرون . بل ان ادلة القرآن كالماء ينتفع به الصبي الرضيع ، والرجل القوي ، وسائر الادلة كالاطعمة التي ينتفع بها الاقوياء مرة ويمرضون بها اخرى ، ولا ينتفع بها الصبيان اصلا [٢] . ولو كانت طريقة المتكلمين مرغوباً فيها لدعا النبي والصحابة والائمة الخلق للبحث والتفتيش والتفسير والتأويل ، في حين انهم بالغوا في زجر من خاض فيه ، وسأل

.....

لم يقدر فبعلم آخر من لغة او نحو اوخط او طب او فقه . فان لم يمكنه فبحرفة او صناعة او بالحراثة والحياكة . فان لم يقدر فبلعب او لهو . وكل ذلك خير له من الخوض في هذا البحر البعيد الغور ، بل لو اشتغل العامي بالمعاصي ربما كان اسلم له من ان يخوض في البحث عن معرفة الله . فان ذلك غايته الفسق ، وهذا عاقبته الشرك ، وان الله لا يغفر ان يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء (الجام العوام ص ٢٦) .

١ ان لا يعتقد ان ذلك ان خفي عليه لعجزه فقد خفي على الرسول او على الانبياء او على الصدّيقين الاولياء . فلا ينبغي ان يقيس بنفسه غيره ، فلا تقاس الملائكة بالحدادين . فقد خلق الناس اشتاتا متفاوتين كمعادن الذهب والفضة وسائر الجواهر (ص ٣١) .

٢ ص ٢٨ — ٢٩ .

عنه ، وتكلم به [١] .

في الاقوال التي يوردها الغزالي بينات واضحة على تفشي علم الكلام بين العامة ، حتى اضطر الى وضع « الجام العوام عن علم الكلام » ؛ والى ان يتساهل معهم في دراسة بعض العلوم ، والانصراف الى بعض الصناعات ، ليحولهم عن هذه المباحث الوعرة التي تقود الى الزلل والكفر . ومن الغرابة القصوى ، والادلة القاطعة على الخطر الذي كان يتعرض له الدين آنذاك ، انه يفضل العامي المنصرف الى الفسق والفجور على العامي المنصرف الى التأويل والكلام . وهناك ناحية اخرى في موقف الغزالي كثيرة الاهمية وهي حصره معرفة المعاني الحقيقية للآيات والاحاديث بالراسخين في العلم . فلهؤلاء وحدهم الحق في تفهمها وتأويلها ، لان ما نشأوا عليه من دين صحيح ، وايمان عميق ، يحفظهم من الانزلاق في طرق الشك . وفي فكرته هذه يبتعد كثيراً عن الحنابلة والشافعية ، وينتسب من حيث الرأي الى جماعة الاشاعرة . الاولون يعتقدون ان تحريم البحث يشمل جميع المسلمين عالمين كانوا ام جهالا ، عامة ام علماء . فلا يميزون بين طبقات الناس ، طبقة عامة يعسر لديها هضم التأويلات ، وطبقة

١ ص ٢٤ .

خاصة ثقفت المعاني الحقيقية لما اختلف من الآيات ، ولما احتملته من التأويلات العديدة . وهذا الموقف التوفيقي المعتدل الذي يقفه ابو حامد بين الحنابلة والعامة المتكلمة يتجلى في كثير من آرائه الفقهية والخلقية ، ويؤوّل لنا السبب الذي دعا المحافظين المغالين في محافظتهم الى اضطهاد تلامذته واحراق كتبه ، ويبين لنا ايضاً انه لم يتردد في حياته الجدلية عن الخوض في هذه المباحث المحرمة بعد ان حصرها في العلماء امثاله . وليس من الغريب اذاً ان ينسب اليه كتاب بعنوان : « المضنون به على غير اهله »[1].

والواقع انه انفق القسم الاوفر من حياته المنتجة في هذا الميدان ، وانه مهر في علم الكلام حتى فاق الاشعري والباقلاني وسواهما ، وانه لم يدع فرقة الا هاجمها ، وتبين ما فيها من الحسن والقبيح . يظهر لنا ذلك في المقطع الذي اشرنا اليه في مكان آخر . جادل جميع من تصدى للسنّة ، او من ظن فيه عدواً لها من اصحاب فرق وفلاسفة وباطنيين ومسيحيين[1]. غير انه لم يكن ليؤمن ايماناً راسخاً بقيمة السلاح الذي يستعمله .

---

١ راجع : Louis Massignon : Le Christ dans les Evangiles et selon Al-Ghazali, Paris 1933. والتصوف عند العرب ص ٥٢ ــ ٥٣ .

اشار الى ضعف اساليب المتكلمين في « القسطاس المستقيم »، وفصّل ذلك الضعف في كتاب « المنقذ من الضلال » بعد ان طلق حياته الجدلية الاولى لينضم الى جماعة المتصوفة. قاده شكه بالمعارف التي وصلت اليه، وسعيه وراء العلم اليقيني الى اطراح كل ما تعلمه وثقفه في عهده الاول قبل ٤٤٨ هـ، والتحول الى الصوفيين، بعد ان علم يقيناً انهم هم السالكون لطريق الله خاصة، وان سيرتهم احسن السير، وطريقهم اصوب الطرق، واخلاقهم ازكى الاخلاق[1]. واورد ما يأخذه على المتكلمين من النقص بعد ان الف على طريقتهم كثيراً من كتبه، وتزعم حركتهم، واصبح امام خراسان والعراق. فان اكثر «خوض المتكلمين في استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم». انصرفوا الى «البحث عن الجواهر والاعراض واحكامها، ولكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم، ولم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى، لم يحصل منه ما يمحو بالكلية ظلمات الحيرة في اختلافات الخلق»[2]. وهكذا رأينا الاشعري بدأ معتزلياً، فانتهى سنياً، وبدأ الغزالي اشعرياً، فانتهى صوفياً.

---

١ المنقذ من الضلال ص ١٣١.

٢ المنقذ من الضلال ص ٨٠ ـ ٨١.

اهم مصادر الفصل

الشهرستانى	الملل والنحل على هامش الفصل لابن حزم (٥ اجزاء)	مصر ١٣٤٧ هـ
الاشعرى	مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين (طبعة ريتر)	استانبول
عبد القاهر البغدادى	مختصر الفرق بين الفرق	مصر ١٩٢٤
فخر الدين الرازى	اعتقادات فرق المسلمين والمشركين	مصر ١٩٣٨
الغزالى	المنقذ من الضلال	دمشق ١٩٣٤
احمد امين	فجر الاسلام	القاهرة ١٩٢٨
عبد الرزاق الحسنى	تعريف الشيعة	
احمد عارف الزين	مختصر تاريخ الشيعة	صيدا ١٩١٤
آل كاشف الغطاء	اصل الشيعة واصولها (الطبعة الثانية)	١٩٣٦

Goldziher : Le dogme et la loi de l'Islam. Paris, 1920.

Massé : L'Islam. Paris, 1940.

Lammens : L'Islam, croyances et institutions. Beyrouth, 1926.

Walter Patton : Ahmad Ibn Hanbal and the Mihna. Leyde, 1897.